

فنون الادب العربي

الفن القصصي

٣

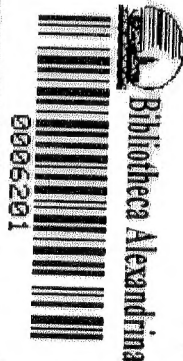
الترجمة الشخصية

بقلم

الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف



80

الرَّجْمَةُ الْخُصَّةُ

فنون الأدب العربي
الفن القصصي

٣

الترجمة الشخصية

بقلم
الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

حاولت في هذا الكُتَيْب أن أعرض صُور الترجمة الشخصية عند العرب في عصورهم المختلفة ، من العصر العباسي إلى العصر الحديث ، وهو فن مستحدث عندهم ، قلدوا فيه غيرهم من الأمم الأجنبية التي قرءوا آثارها ، وخاصة اليونان ، فإن بعض متفلسفتهم ترجم لنفسه ، وتحدث عن كتبه . وحاكمهم متفلسفو العرب ، واتسعت المحاكاة : فدخل فيها العلماء والمتصوفة ورجال السياسة .

وكان لكل طائفة منهمجها الخاص ، فالفلاسفة والعلماء ، إنما عُنُوا بالتحدث عن حياتهم الفلسفية أو العلمية وما ألفوا وخلقوا من مصنفات ، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته ونشأته والمؤثرات الخارجية المختلفة التي وقعت عليه وأثرت في حياته . ويظهر أنهم لم يفتنوا إلى ضرورة ذلك ، ومن ثَمَّ كانت هذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية ، إذ تصبح في أغلب الأمر تَبَيُّاتاً لمؤلفات الفيلسوف أو العالم غير معنية بشيء من بيئته أو حياته .

ولم يَجْزِ المتصوفة في هذا الاتجاه ، فقد عُنُوا بالحديث عن تجاربهم الروحية وكأنهم يريدون بها جذب الناس إلى طريقهم وما فيه من مواجد ومشاعر ومقامات ومشاهدات ، وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن نقائصهم . ومع أنهم يُطْرَفُونَا أَكْثَرُ من المتفلسفة والعلماء بوصفهم لتجاربهم الدينية ، إلا أنها تجارب محدودة بهذا المجال ، ولا تخوض بنا في الحياة البشرية العامة بكل ما فيها من قبح وحسن ، ونقص وكمال ، وضعف وقوة .

وكتبَ بعضُ الساسة ورجال الحرب تجاربهم في حياتهم السياسية أو الحربية ، وهي تجارب خارجية في أكثرها ، ولكنها تصور جوانب مهمة من أحداث حياتنا في العصور الوسطى . إذ اتفق أن كان من هؤلاء الرجال دعاة لبعض التحل الدينية السياسية وأبطال أسهموا في الحروب الصليبية غرباً وشرقاً في الأندلس والشام . فقدموا لنا مذكرات ووثائق تاريخية خطيرة ، وإن كانوا قلما قدموا حياتهم الخاصة في شكل يوميات دقيقة .

حتى إذا كان العصر الحديث رأينا الترجمة الشخصية عندنا تتطور تحت تأثير ما قرأ أدباؤنا وكتابنا للغربيين من تراجم كاماة عن حياتهم ، وقد وصفوها فيها من جميع أطرافها ، بعيوبها ومحاسنها ، بل لقد تحولوا بها إلى اعترافات صريحة بدون أى نحرج أو تصنع . وبذلك غدت الترجمة الشخصية عندهم ضرباً من القصص الحى البديع .

وربما كان طه حسين خير من جارى الغربيين في هذا المضمار . فقد كتب عن طفولته وشبابه في « الأيام » بدون أى تمويه ، وأعطانا صورةً شاملة لكل ما اضطرب فيه بسبب فقدته لبصره في سن مبكرة ، ولكل ما أثر فيه بسبب نشأته الأولى . وسكب على « أيامه » كثيراً من فنه ، فجاءت قطعة أدبية رائعة . وكتب أحمد أمين حياته في يسر وبساطة ، مصوراً بيئته وظروفه تصويراً واقعياً . وقد أَلَمْنَا بذلك كله في إنجاز بقدر ما تسمح به حلقة في هذه السلسلة . وعلى الله قصد السبيل .

القاهرة في ٢٥ من أبريل سنة ١٩٥٦ م شوقي ضيف

لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم ، فيعرفون بأنفسهم ، وقد يذكرون بعض أعمالهم . واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريتهم وأفعالهم . وكانت تسمى هذه الروح في الأمم القديمة من حوهم . وقد سجل يوليوس قيصر في كتابه «التعليقات» حروبه في الغال والحرب الأهلية بينه وبين بومبي . وعرض عرضاً بارعاً للدسائس والمؤامرات التي كان ينسج خيوطها من حوله من الأصدقاء والأعداء على السواء .

وأثير عن ملوك الفرس وصايا لأبنائهم توضح سياستهم ، نقلها عنهم العرب فيما نقلوه من تواريتهم وأخبارهم ، وفي كتاب «تجارب الأمم» لمسكويه أن كسرى أنو شروان ألف كتاباً في سيرته وسياسته . واكتفى مسكويه في التعريف به ببعض صفحات من هذا الكتاب تصور حروبه وانتصاراته على الروم والترك والديلم ، كما تصور سياسته الداخلية ونشره للعدل في رعيته وتخفيفه لمغارم الضرائب عنها ، حتى تقوى على عمارة الأرض واستخراج ثمارها .

ومع ممر التاريخ نشأ المؤرخون ، ونشأت طبقات من المفكرين والفلاسفة ، أودعت كتاباتها كثيراً من حياتها وأحوالها وتجاربها ، وكان من أهم ما قرأ له العرب فصولاً طويلة في ذلك جالينوس الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور ، فإنه ضمن كتبه الكثيرة التي نقاها نبذاً ونوادير متفرقة عن حياته ، وخاصة في مؤلفيه : «مراتب قراءة كتبه» و «فينكس كتبه» أو فهرسها الخاص . وفيهما صور نشأته وحياته العلمية تصويراً دقيقاً . ومن قوله في المؤلف الأول : «إن أبي لم يزل يؤدبني بما كان يحسنه من علم الهندسة والحساب والرياضات التي تؤدب بها

الأحداث ، حتى انتهت من السن إلى خمس عشرة سنة ، ثم إنه أسلمنى إلى تعليم المنطق ، وقصد بى حينئذ إلى تعليم الفلسفة وحدها ، فرأى رؤيا دعتة إلى تعليمي الطب . . . وقد أنت على من السنين سبع عشرة سنة . ويعرض علينا فى فهرست كتبه مؤلفاته وتاريخ تأليفها ويشرح ما فيها من الآراء ، ويذكر بعض الحوادث التى مرت به ، بحيث يمكن أن يقال إن هذا المؤلف والمؤلف السابق له ترجمة ذاتية أو شخصية لجالينوس .

ولست ترجمة جالينوس ولا ترجمة كسرى أنو شروان كل ما قرأه العرب من تراجم شخصية أجنبية فإنهم قرءوا فى كتاب « كليله ودمنه » الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسيه ترجمة لبرزويه رأس أطباء فارس الذى نقل للفرس هذا الكتاب عن أصوله الهندية ، وتبدأ الترجمة على هذا النحو :

« أبى كان من المقاتلة ، وكانت أبى من عظماء بيوت الزمازمة "المجوس" وكان منشئى فى نعمة كاملة ، وكنت أكرم ولد أبوى عليهما ، وكانا بى أشد احتفاظاً من دون إخوتى ، حتى إذا بلغت سبع سنين أسلمانى إلى المؤدب ، فلما حذقت فى الكتابة شكرت أبوى ، ونظرت فى العلم ، فكان أول ما ابتدأت به وحسرت عليه علم الطب ، لأنى كنت عرفت فضله . وكلما سددت منه علماً ازددت فيه حرصاً وله اتباعاً . فلما همت نفسى بمداواة المرضى وعزمت على ذلك أمرتها "شاورتها" ثم خيرتها بين الأمور الأربعة التى يطلبها الناس وفيها يرغبون ولها يسعون ، فقلت : أبى هذه الخلال أبغنى فى علمى وأبها أخرى بى فأدرك حاجتى ؟ ألمال أم الذكر أم اللذات أم الآخرة ؟ وكنت وجدت فى كتب الطب أن أفضل الأطباء من واطب على طبه ، لا يبتغى إلا الآخرة ، فرأيت أن أطلب الاشتغال بالطب ابتغاء الآخرة ، لئلا أكون كالتاجر الذى باع ياقوته ثمينة بخززة لا تساوى شيئاً . »

ثم يمضى برزويه فيقص علينا فى حديث مسهب سيرته فى مداواة المرضى

وكيف كان يزجر نفسه عن النظر إلى مَنْ همّ دونه في العلم وفوقه في الجاه والمال ، وكيف كان يُقبل على تقديم الخير للناس ابتغاء الدار الآخرة غير مؤثر للذة ولا منخدع بمنفعة ولا بصلة لقريب أو صديق . ثمّ يحدّثنا أنه شك في دين آبائه وأجداده . فالتمس ديناً جديداً ودعاه ذلك إلى أن يبحث في الأديان ، وطال بحثه وتفكيره وتردده . وأخيراً انتهى إلى مجموعة من الفضائل توافق كل الديانات . كما انتهى إلى النسك والزهد في الدنيا ومتاعها وشهواتها وكل ما بها من زخارف الحياة . وهي ترجمة بديعة . وإن كان يُظنّ أنها استُخدمت في الأصل الفارسي للدعوة إلى مذهب «ماني» الذي عُرف عندهم والذي كان يدعو إلى رفض الشهوات واطراح اللذات ، مما ليس هنا تفصيله . على كل حال قرأ العرب هذه الترجمة لبرزويه ، وكان لها أثرها في تصوّرهم للترجمة الشخصية . وإن لم يبلغ هذا الأثر مبلغ ترجمة جالينوس لنفسه كما سنرى في الفصول التالية .

وإذا كان العرب في العصر العباسي عرفوا بعض ما كان عند الأجانب من هذه الترجمة فإنهم في العصر الحديث عرفوا أيضاً كثيراً مما كتبه الغربيون في هذا الباب ، ولسنا نستطيع أن نُحصي هنا أعمال الغربيين ، فهي كثيرة ومتنوعة ، ولكل أمة تراجمها الممتازة . بحيث يؤلف هذا الفن عند القوم ، كل في محيطه وبيئته ، سلسلة متلاحقة من الآثار . ومن أروع التراجم عندهم « الاعترافات » لجان شاك روسو ، وهو يقول في فاتحتها : إنه سيعرض نفسه على حقيقتها ولن يموه فيها ، ولن يخفى سيئة أو يزيّف حسنة ، إنما سيدكر الحق مجرداً ، ولن ينقص منه شيئاً . ومضى فعرض حياته عرضاً دقيقاً . ولعاصره « جيته » ترجمة شخصية سماها « الشعر والحقيقة » عرضها بأسلوبه الرائع .

وكرّرت هذه الترجمة في القرن التاسع عشر ؛ ومن ترجحو لأنفسهم فيه مستندال ، وتتميز ترجمته بنظرات تحليلية في الطبائع الإنسانية في نفسه وفيمن حوله ، وكان من رأيه أن الأدب ثمرة كل الظروف التي تحيط به ، وبهذا الرأي تأثر في كتابته عن نفسه ، وحاول أن يرد عواطفه وكل ما يتصل به إلى محيطه .

ولتولستوى ترجمة معروفة سماها « طفولة وفتوة وشباب » عرض فيها حياته عرضاً دقيقاً ، والفلاسفة الغربيون الذين ترجموا لأنفسهم كثيرون وهم يكشفون لنا في تراجمهم عن حياتهم العقلية وتطورها ، بحيث لا يستغنى عنها دارس لفلسفتهم .

ولن نستطيع أن نذكر هنا كل من ترجموا لأنفسهم في الغرب ، إنما حسبنا أن نشير إلى أن هذا الفن الأدبي له تراث كبير عند القوم ، وأن هذا التراث اطلع عليه أديابؤنا المحدثون ، وأنهم أفادوا منه في صنعهم لتراجمهم التي نقرؤها لهم ، وخاصة حين نجدهم يعرضون لأطراف حياتهم في صراحة ، وحين يخوضون في المؤثرات التي أثرت فيهم . ومن المحقق أن فن التراجم الغربية ارتقى عند القوم ، حتى أصبحت الترجمة شيئاً طريفاً يُقرأ ، بما وضعوا فيها من اعترافاتهم ، وضمائمها من سيئاتهم وحسناتهم . وليس ذلك فحسب ، فهم يكتبون على ضوء الفكر الحديث وآرائه النفسية في الفرد والجماعة ، وبذلك يتيحون لنا دراسة ممتعة لأشخاصهم في العوالم التي يتسبون إليها ، ونقصد عوالم الفلسفة والأدب والعلم .

وقد يتخذ بعضهم ستاراً من القصة ، ولكن مع ذلك تُعرف الحقيقة ، فإذا القصة حين تُغيّر الأسماء فيها تصبح علماً عليه وعلى أهله وأصدقائه والأشخاص الذين عرفهم ، على نحو ما هو معروف عن قصة « راعي ويكفيلد » لجولد سميث ، ولم تشتهر قصته في هذا الباب كما اشتهرت قصة « ديفد كوبر - فيلد » لديكنز فإنه قص فيها حياته الأولى ، وليس « مستر مكوير » تلك الشخصية البديعة في القصة إلا أبوه بكل ما يميزه من سمات . ويمكن أن نقول بصفة عامة إن كثيراً من مواقف القصص ، بل إن كثيراً من أبطالها يصورون كاتبها في ظروف معينة ، فالكاتب كثيراً ما يستمد من واقع نفسه وتجربته الذاتية ، ولا يضعف ذلك من عمله ، بل قد يرفع منه أحياناً ، لأنه يجعل التجربة التي نقرؤها في القصة تجربة صادقة معبرة عن واقع حقيق .

ولعل من الطريف أن أديابؤنا المعاصرين قلدوا الغربيين في العملين أو الوجهتين جميعاً ، فهم تارة يكتبون تراجم شخصية كاملة ، يرسمون فيها

حياتهم رسماً دقيقاً ، لا ينسون فيه البيئة والوسط والظروف الخارجية : وتارة أخرى يقصّون على طريقة القوم قصصاً يصور حياتهم ، إن لم يكن تصويراً كاملاً ، فهو تصوير لبعض تجاربها . ومن أمتع ما كُتِبَ في هذا اللون قصة «إبراهيم الكاتب» لإبراهيم عبدالقادر المازني . حقاً أنه لا يصح أن نعتمد كل الاعتماد على ما جاء في هذه القصة من حوادث لمعرفة حياة المازني . ولكنها في جملتها تعد تصويراً لوقائعه وتجاربه الشخصية .

وكتابة القصة على هذا النحو المستمد من حياة الكاتب لا تعد ترجمة ذاتية له بالمعنى الدقيق ؛ لأنه يضيف إلى تجاربه تجارب أخرى من محيطه : ولكنها على كل حال تعد تعبيراً عن نفسه . وإن لم يكن تعبيراً دقيقاً على نحو ما نجد في الترجمة الشخصية التي تنحصر في تجارب الكاتب . ولا يُضاف إليها أي تجربة من الخارج . ولا أي حادثة . من شأنها أن تضع ستاراً أولثاماً بيننا وبين حقائقه .

الفصل الأول

تراجم فلسفية

١

المتفلسفة يترجمون لأنفسهم

قدمنا في التمهيد أن العرب قرءوا ترجمة برزوييه الطبيب لنفسه كما قرءوا كتب جالينوس وقد أكثر فيها من الحديث عن تربيته وسلوكه ومؤلفاته وما صادفه من بعض المحن . فكان طبيعياً أن يتأثره بعض المتفلسفة من العرب في هذا الاتجاه .

وأكبر مترجم لكتب جالينوس هو حنين بن إسحق المتوفى سنة ٨٢٦/٨٧٣ م إذ كان يعجب به إعجاباً شديداً ، فكان طبيعياً أن يقتدى به في الحديث عن نفسه ، وأن يؤلف في ذلك بعض آثاره . وتصادف أنه وقعت له محن من بعض نظرائه وأبناء حرفته . إذ كان يحترف الطب ، وقربه منه المتوكل ، الخليفة العباسي المشهور ، فكانوا ينقمون عليه ذلك ، وما لبثوا أن أخذوا في الكيد له ، فادّعوا أنه يمزق الصور الدينية ، وما زالوا به حتى غضب عليه الجاثليقي .

وكان هذا الصنيع يحدث ضيقاً شديداً في نفس حنين . فكتب رسالة صور فيها ما أصابه من المحن والشدائد في ذلك معبراً عن مدى حزنه . واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « طبقات الأطباء » بهذه الرسالة التي تعد أقدم نص في ترجمة المتفلسفة لأنفسهم ، وهي تبدأ على هذا النمط .

« إنه لحقني من أعدائي ومضطهدي الكافرين بنعمتي ، الجاحدين لحقي ، الظالمين لي ، المتعدّين على من المحن والمصائب والشرو ما منعتني من النوم وأسهر عيني وأشغلني عن مهماتي . وكل ذلك من الحسد لي على علمي وما وهبه الله عز

وجلّ لي من علو المرتبة على أهل زمانى . وأكثر أولئك أهلى وأقربائى : فإنهم أول شروى وابتداء محى ، ثم من بعدهم الذين علّمهم وأقرأهم وأحسن إليهم وأرقدتهم وفضلتهم على جماعة أهل البلد من أهل الصناعة وقرّبت إليهم علوم الفاضل جالينوس . فكافتونى عوض المحاسن مساوئ بحسب ما أوجبته طباعهم وبلغوا بى إلى أقبح ما يكون من إذاعة أخس الأخبار . . حتى ساءت بى الظنون وامتدت إلى العيون ، ووضع على الرّصد . حتى إنه كان يحصى على ألفاظى ويكثر اتهامى بما دق منها مما ليس غرضى منه ما أومئوا إليه . فأوقعوا بغضتى فى نفوس سائر أهل الملك فضلا عن أهل مذهبي ، وعلمت لى المجالس بالتأويلات الرذلة .

وحين حزين فى مطلع الرسالة لأن من يكيدون له ، ويناصبونه العداء ، من أهله وتلاميذه الذين كان ينتظر منهم العون على الحن لا تديرها وحك خيوطها . وكم يحزن النفس حقاً أن تكون اليد التى ينتظر منها الإنسان الشكر على ما قدم لصاحبها هى التى تستلّ عليه الآلة القاتلة ، وتحاول أن تطعنه الطعنة القاضية . وهو لون بغض من ألوان أهون والدلة فى بعض الناس إذ يعود ما يتقدم إليهم من جميل عاملاً لا من نكران الجميل فحسب ، بل عاملاً من عوامل الفتك والإهلاك . وقد أعيأ هؤلاء الجاحدين أن يأتوا حنّين من قبل علمه ومهنته ، فأتوه من قبل دينه وعقيدته ، والعقيدة مغيبة عن الناس . ومفروض أن من يعرفها فى الشخص ذوو قرباه ومن اتصلوا به من تلاميذه ، فإذا أجمعوا أمرهم على أن عقيدته فاسدة كانوا قد طعنوه الطعنة النجلاء .

ويحدثنا حين أن الباعث للقيام على ذلك كله علمه وحسد ركب فى نفوسهم ، إذ رأوه ينقل عن جالينوس وفلاسفة اليونان آثارهم فى لغة عربية فصيحة ، لا الحن فيها ولا استغلاق ، بل بأعذب ما يكون من اللفظ وأقربه إلى الفهم . ويعزى نفسه بما أصاب من منزلة بين أهل الأدب ، ثم يعود إلى الأسى والحسرة ، فإن

من يعادونه هم الأطباء النصارى الذين تعلموا على يديه ، وأنهم ليحاولون أن ينقصوا من علمه وفصله في الطب ، فيقولوا إنه ناقل ولا يحسن من هذه الحرفة شيئاً ، وفي الوقت نفسه يتعلمون عليه ، وإذا مرض أحدهم صار إليه ، حتى يأخذ منه الدواء . ويذكر أنهم ستة وخمسون رجلاً ، وهم متفرقون في خدمة الأمراء والوزراء . ناقمون عليه منزلته من الخليفة المتوكل ، وما يزالون يوغرون الصدور عليه ، وهو لا يقابل ذلك إلا بالصبر وغمض الطرف ، وإذا ذُكر أحدهم أمامه أننى عليه . لما يجمعه معه من الديانة والبلدة والصناعة ، ثم يقص علينا مكيده دبرها له معاصره المشهور : بختيشوع بن جبرائيل لدى الخليفة المتوكل ، فقد استطاع أن يقنع الخليفة بأنه زنديق ملحد في دينه ، إذ أحضر لديه صورة للعنراء وابنها ، والملائكة تحف بهما ، وقبلها أمامه مراراً ، ثم قال له ادع حنين ، واعرضها عليه . وانظر ماذا يفعل ، وذهب من توة إلى حنين فذكر له أن الخليفة عرض عليه صورة للمسيح وأمه ، فبصق عليها ، وسرَّ الخليفة من ذلك . ثم قال : فإذا عرضها عليك فاصنع بها صنيعي . وأنفذ حنين ما أشار به صديقه ، فغضب المتوكل عليه وأمر أن يُزَجَّجَ به في السجن . ثم تصادف أن مرض المتوكل ، ولم يستطع بختيشوع ولا غيره أن يبرئه من مرضه ، فقال : علىَّ بحنين ، فوصف له دواءً كان سبب شفائه ، فعفا عنه .

والرسالة على هذا النحو خاصة بحنن حنين ، وهي نحن لا تشرف المجتمع الذى عاش فيه ، أو بعبارة أدق لا تشرف الأطباء من زملائه ، بل لأنها تصممهم بأقبح ما يتصف به لإنسان من حقد وكند وأثرة ، حتى إنهم ليعمَّون في سبيل غاياتهم عن كل معنى من معانى البر والرحمة ، بل إنهم ليتحولون إلى مخلوقات شريرة لا تعرف سوى الختل والغدر وما إلى ذلك من قبيح الصفات والشيم المكنونة في النفوس الخفية .

وإذا كان حنين تأثر في هذه الرسالة بما كتبه جالينوس عن بعض محنه فإن مِيتَلفسفاً آخر كان يعاصره هو محمد بن زكريا الرازى ، تأثر جالينوس لافيا كتبه

عن محنة أو تجاربه ، وإنما في كتبه عن سيرته وسلوكه الفلسفي ، فقد خلّف لنا رسالة وصف فيها سيرته الفلسفية .

والرازي أكبر أطباء عصره ومفلسفته ، دبر مارستان (مستشفى) ببلدته الرّي ثم دبر مارستان بغداد ، وخدم في غير بلاط ، وترك كثيراً من الآثار في الطب والفلسفة بفروعها ، توفي سنة ٣١٣ هـ / ٩٢٥ م . وقد تُرجم عدد من مؤلفاته إلى اللاتينية ، وظل إلى القرن السادس عشر حجة في الطب بالعالم الشرق والغرب .

ورسالته في سيرته دفاع عن هذه السيرة وأنها حقاً سيرة فيلسوف أو متفلسف ، وهو يستهلها بأن ناساً عابوا عليه مداخلة الأمراء وأصحاب السلطان والتصرف في وجوه من المعاش ، وقالوا إنه لا يسير سيرة سقراط وما أثر عنه من الزهد في الدنيا ومتاعها ، حتى إنه كان لا يشرب خمرًا ولا يأكل لحماً ولا أعقب نسلاً ، ومع ذلك فهذه السيرة لسقراط في رأيهم مخالفة لمجرى الطبع وقيام النسل وداعية إلى انقراض العالم وبوار البشرية وهلاكها . وردّ الرازي على ذلك بأن ما يقولونه عن سقراط غير صحيح في جملة ، فقد كان يسير هذه السيرة في ابتداء أمره ، ثم انتقل عنها ، فتزوج وحارب العدو وحضر مجالس اللهو ، ومن فعل ذلك فقد خرج عن أن يكون ساعياً في خراب الدنيا وبوار العالم .

ويستطرد الرازي من ذلك إلى بيان سيرته ، وهي السيرة الفلسفية التي يرى أن يتصف بها محبّو العلم ومؤثروه ، فيقول إننا لم نخلق لإصابة اللذات الجسدية ، وإنما خلقنا لاقتناء العلم واستخدام العدل ، والطبيعة والهوى يدعواننا إلى المتع الحسية : بينما يدعونا العقل كثيراً إلى رفض هذه المتع والعدول عنها إلى العدل والعلم اللذين طلبهما الله منا ، فإنه يكره الجور والجهل . وإن العاقل من حسب حساب آخرته وامتنع عن كل لذة تعقب ألماً أو ضرراً يعود عليه . وما دام العالم الآخر هو الدائم غير المنقطع فالمغنون من اشترى لذة بائدة هالكة بلذة باقية غير منقطعة ولا فانية . وقد أحل الله لنا جميع الطيبات . على أن من الفلاسفة من يترك كثيراً من المباحات لتمرين نفسه على ذلك وتعويدها عليه . ولما كنا لا نحب أن يقع بنا ألم

فإن من الواجب أن لا تؤلم غيرنا من الناس والحيوان، فلا نظلم ولا نتلذذ بالصيد ولا نكد البهائم إلا مع قصد ومذهب عقلى عادل . ويرى أن من حقنا قتل الحيوان المفترس والمؤذى مثل الحيات والعقارب ، كما أن من حق كل شخص أن يأكل اللحم وأن يمتنع عنه . وما دام الواجب أن لا يؤلم الإنسان غيره ، فينبغى أن لا يؤلم نفسه على نحو ما يصنعه الهند من التقرب إلى الله بإحراق أجسادهم وطرحها على الحداثد المشحودة . والناس مختلفون، منهم المترف الذى رُبى فى النعيم، ومنهم البائس الفقير ، وليس سيان من ينشأ فى غنى وترف ومن ينشأ فى فقر وشظف ، وينبغى للفيلسوف أن تكون سيرته فى طعامه وثيابه ومسكنه على الحد الأوسط من الاعتدال والامتناع عن الإسراف فى اللذات .

ثم يأخذ الرازى فى بيان سيرته وأنها تطابق هذه السيرة الفلسفية المعتدلة علماً وعملاً ، فأما العلم فقد ثابر على القراءة والدرس ، حتى أصبح متفلسفاً يؤلف فى البرهان وفى العلم الإلهى وفى الطب الروحانى وفى المدخل إلى العلم الطبيعى وفى الزمان والمكان والمدة والدهر وفى شكل العالم والفلك وفى الجسم والنفس والمادة وفى الطب والكيمياء . ويسمى بعض كتبه ويقول إنها بلغت نحو مائتين . ثم يقول إنه فى العمل أو الجزء العملى يجرى على طريقة الفلاسفة ، وإذا كان يداخل السلطان فلأجل مداواته فى مرضه ، أما فى عافيته فإنه يؤانسه ويشير عليه بما فيه صلاح نفسه وصلاح الأمة . وهو بعد ذلك ليس عنده شره فى جمع مال ولا سرف فيه ، ولا ميل لخصامات الناس ومنازعاتهم ولا رغبة فى ظلمهم . أما مطعمه ومشربه ولهوه فهو فى كل ذلك مقتصد اقتصاده فى ثيابه وما يتخذ من مركب أو خادم أو جارية . وهوايته التى تستنفد وقته هى محبة العلم وتحصيله والإكباب عليه إكباباً شديداً : إكباب على القراءة ولقاء العلماء وإكباب على التأليف ، حتى ضعف بصره وشلت يده ، وأصبح يستعين بمن يقرأ له ويكتب . وعلى هذه الشاكلة يعرفنا الرازى أولاً بسيرة الفيلسوف المثالية ، ثم يطبقها على نفسه ، ليرى قارنه أنه يسير سيرة القوم فى حياتهم العلمية والعملية . وكان الرازى حقاً مثلاً

ممتازاً للفيلسوف ، الذى يأخذ نفسه بما ينشر من آراء وأفكار .

وإذا كان الرازى تأثر بجالينوس فى كتابته لسيرته الفلسفية وما قصه عن سلوكه وتأثر من قبله حنين بن إسحق بما كتبه عن بعض محنه ، فإن من خلفهما من المتفلسفة تأثر به مباشرة فى كتابيه : « مراتب قراءة كتبه » و « فينكس كتبه » فأخذوا يكتبون لأنفسهم تراجم شخصية يعرضون فيها نشأتهم الفلسفية . وما صنفوه وألفوه من كتب مختلفة .

٢

ابن الهيثم

متفلسف عراقى ولد بالبصرة سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م وعنى منذ صغره بالعلوم الطبيعية والرياضية ، وبرع فى الأخيرة براءة منقطعة النظر ، حتى أصبح أكبر عظم فيها لعصره . وقربه لذلك حاكم بلدته ، وجعله من كبار رجال دولته ، لكنه سرعان ما عزف عن الوظيفة السياسية وانقطع للدرس والبحث . ويقال إنه سمع بنهر النيل وزيادته ونقصانه الدائمين . فقال إنه يستطيع أن يتحكم فيه بالزيادة والنقص ، ونُقل ذلك إلى الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمى المعروف ، فاستدعاه لتحقيق ذلك ، ولجىَّ دعوته ، إلا أنه حين عاين النيل ودّرّسه انكسرت همته ، وعرف أن أمره لا يجرى حسب ما ظنه . فاعتذر للخليفة ، وقبل عذره ، وعينه ببعض الدواوين ، وقبّل ذلك خوفاً من بطشه المشهور عنه لا رغبة فى الوظيفة ، ثم أجال فكره فى أمر يتخلص به منه ، فلم يجد وسيلة إلى ذلك إلا لإظهار البله والخيال ، فصُرف عن عمله ، وظل على هذه الصورة المشوشة حتى توفى الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه من التأليف

والاشتغال بالفلسفة والرياضة ، حتى وافاه أجله سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م .
 واحتفظ لنا ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء »
 برسالة نقلها من خطه ، وهي مقالة فيما صنعه وصنفه من علوم الأوائل إلى آخر
 سنة سبع عشرة وأربعمائة للهجرة . والمقالة بعنوانها تتصل مباشرة بما كتبه
 جالينوس عن كتبه ومصنفاته مما قدمنا عنه الحديث في التمهيد ، وهو يستهلها على
 هذا النمط .

« إلى لم أزل منذ عهد الصبا مروياً في اعتقادات الناس المختلفة وتمسك
 كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي ، فكنت متشككاً في جميعه موقناً بأن الحق
 واحد وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه . فلما كملت لإدراك الأمور
 العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق . ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به
 تنكشف تمويهاات الظنون . وتنقشع غيايات المتشكك المفتون . وبعثت عزيمتى
 إلى تحصيل الرأى المقرب إلى الله جل ثناؤه ، المؤدى إلى رضاه ، الهادى إلى
 طاعته وتقواه ، فكنت كما قال جالينوس في المقالة السابعة من كتابه " في حيلة
 البرء " يخاطب تلميذه : لست أعلم كيف تهياً لى منذ صباهى — إن شئت قلت
 باتفاق عجيب : وإن شئت قلت بإلهام من الله ، وإن شئت قلت بالحنون ، أو
 كيف شئت أن تنسب ذلك — أنى ازدريت عوام الناس ، واستخففت بهم ولم
 ألتفت إليهم . واشتهيت إثارة الحق وطلب العلم ، واستقر عندى أنه ليس ينال
 الناس من الدنيا شيئاً أجود ولا أشد قربة إلى الله من هذين الأمرين . فخضعتُ
 لذلك فى ضروب الآراء والاعتقادات وأنواع علوم انديانات فلم أحظ من شىء
 منها بباطل . ولا عرفت منه للحق منهجاً ولا إلى الرأى اليقضى مسلكاً جديداً
 " واضحاً " له . فرأيت أنى لا أصل إلى الحق إلا من آراء يكون عنصرها الأمور
 الحسية وصورتها الأمور العقلية . ولم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسططاليس من
 علوم المنطق والطبيعات والإلهيات التى هى ذات الفلسفة » .

وواضح من هذا المطلع لترجمة ابن الهيثم أنه شغل منذ أول أمره باختلاف

الفِرَق ، وقد اهتمدى بفطرته إلى أن الحق واحد وأن الاختلاف بين الطوائف والملة والمذاهب إنما هو في طريق الوصول إليه ، واقتنع بأن معرفة الحق هي التي تقربه إلى ربه ، فبعث عزيمته إلى هذه المعرفة التي لا تنال إلا بالعلم . وبذلك تحددت وسيلته وغايته ، فهو يتوصل بالعلم إلى معرفة الحق الذي يرضى الرب ويهدي إلى طاعته وتقواه . وحاول ذلك أولاً عن طريق كتب الآراء والاعتقادات فلم يحظ بباطل ، وهدهاه تفكيره إلى أنه لن يصل إلى الحق إلا عن طريق آراء يكون عنصرها الأمور الحسية وصورتها الأمور العقلية ، وبحث عن هذا الطريق فلم يجده إلا في كتب أرسططاليس وما رسمه في المنطق والطبيعات والإلهيات . وكل ذلك معناه أنه كان ينزع في تفكيره الفلسفي منزعاً دينياً ، وتشهد بذلك مؤلفاته ، فهو يردّ فيها على منكري النبوات والمراقين عن الدين مثل ابن الراوندي . وهو يعلن إيثاره لكتب أرسطو على كتب غيره من الفلاسفة فقد وجد فيها ضالته ، وهي الربط بين الأمور الحسية ربطاً ينتهي بها إلى الصور العقلية التي كان ينشدها .

وفراه بعد هذه المقدمة يتحدث عن كتب أرسططاليس في المنطق والرياضيات والطبيعات والإلهيات حديثاً تفصيلياً يصور فيه كيف أن أفكارها تتسلسل ، فتتسلم كل حلقة إلى أختها ، حتى تنهي إلى الإلهيات : وقد استقرت في عقولنا الفروع والأصول . وابن الهيثم دقيق كل الدقة في فهمه لفلسفة أرسططاليس التي لم تكن تعتمد على شيء مثالي أو خيالي على نحو ما هو معروف عن أستاذه أفلاطون ، إنما كانت تهتم بالمحسوسات أو قل إنها كانت تبدأ منها ، ولم يكن يدرس العام ليتحول منه إلى الخاص ، بل كان يدرس الخاص ليتحول منه إلى العام ، فهو يبدأ بالجزئيات ثم يتحول إلى الكليات .

وانتفع ابن الهيثم بهذا المنهج في تفكيره الرياضي : فلم يقف به عند التفكير النظري أو التفكير الكلي العام ، بل أخذ يعني بالجزئيات وبالتجارب ليصل من ذلك إلى نظرياته وآرائه في فلسفة الضوء وغيره ، واستطاع أن يسجل ملاحظات

نفسية هامة في الإبصار والإدراك الحسى ، وبذلك أخذت الأبحاث الرياضية عنده شكلاً علمياً قائماً على الفحص والتجربة ، ولم تضلّ في أعماق أومتهاات وراء المادة ، فقد تلقن كما يقول هنا في هذه المقالة البديعة أن يهتم بالحسّ بل أن يبدأ به دائماً ، وأن لا يتكلم فيما ليس له مشخصات في الخارج وإلا كان كمن يرقم في الماء . فالتفكير الرياضى ليس شيئاً وهمياً ولا خيالياً . . وإنما هو آراء مستنبطة من تحليل الظواهر المادية . وبهذا التفكير المستقيم المستمد من فلسفة أرسططاليس الطبيعية الواقعية أصبح ابن الهيثم أكبر رياضى عرفه العالم الإسلامى.

ونراه بعد تحليله لفلسفة أرسططاليس يعلن إعجابه الشديد بها وأنه تعلق بأصولها ومبادئها ، يلخصها تارة ويشرحها تارة أخرى ، رياضة لفكره ورجاء أن ينتفع بها غيره من الناس ، وليجد فيها ذخراً ومعة لوقت شيخوخته ، يقول :

« وأنا ما مُدَّتْ لى الحياة باذلٌ جهدى ومستفرغ قوتى فى مثل ذلك متوخياً به أموراً ثلاثة : أحدها إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد وفاتى ، والآخر أنى جعلت ذلك ارتياضاً لى بهذه الأمور فى إثبات ما أتصوره وأتقنه فكبرى من تلك العلوم ، والثالث أنى صيّرته ذخيرة وعدة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم ، فكنت فى ذلك كما قال جالينوس فى المقالة السابعة من كتابه "فى حيلة البرء" : إنما قصدت وأقصد فى وضع ما وضعته وأضعه من الكتب إلى أحد رجلين ، إما إلى نفع رجل أفيده إياه ، وإما أن أتعجل أنا فى ذلك رياضة أروض بها نفسى فى وقت وضعى إياه وأجعله ذخيرة لوقت الشيخوخة » .

ثم يأخذ ابن الهيثم فى شرح مصنفاته فى الأصول الأرسططالية الثلاثة ، ويذكر أن ما صنّفه فى العلوم الرياضية حتى هذا التاريخ الذى كتب فيه تلك الترجمة وهو سنة ١٧/٤١٦/١٠ خمسة وعشرون كتاباً ويحصىها واصفاً لكل منها . وأكثرها يدور فى الأصول الهندسية والعددية أو الحسابية ، ومنها ما يدور فى الفلك ورصد النجوم . وقد جعلته نزعة الدينية ينحصر سمّت القبلية فى جميع المسكونة برسالة

خاصة ، كما كتب رسالة فيما تدعو إليه حاجة الأمور الشرعية من الأمور الهندسية .

ثم أحصى بعد ذلك كتبه في العلوم الطبيعية والإلهية . وذكر أنها أربعة وأربعون كتاباً : ووصف طائفة منها . والصلة واضحة فيها بين أرسطو وبينه ، فهو تارة يلخص بعض كتبه ومقالاته وتارة يرد على من نقضوا بعض أقواله وآرائه . ومن بين ما ذكره رسالة في بطلان ما يراه المتكلمون من أن الله لم يزل غير فاعل ثم فعل . ورسالة أخرى بعنوان أن فاعل هذا العالم إنما تعلم ذاته من جهة فعله . والرسالتان جميعاً تصوران نزعته الدينية وأنه كانت له مشاركة في أبحاث علم انكلام . ثم ينهى رسالته بقوله :

« ذلك سوى رسائل ومصنفات عدّة حصلت لي في أيدي جماعة من الناس بالبصرة والأهواز ضاعت دساتيرها . وقطع الشغلُ بأمور الدنيا وعوارض الأسفار عن نسّخها . وكثيراً ما يعرض ذلك للعلماء ، فقد اتفق مثله لجالينوس ، حتى ذكر ذلك في بعض كتبه . فقال : وقد صنفت كتباً كثيرة ودفعت دساتيرها إلى جماعة من إخواني وقطعني الشغل والسفر عن نسخها ، حتى خرجت إلى الناس من جهتهم . وإن أطل الله لي في مدة الحياة وفَسَحَ في العمر صنفت وشرحت ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد في نفسي . ويبعثني ويحثني على إخراجها إلى الوجود فكري ، والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ويبيده مقاليد كل شيء . وهو المبدئ والمعيد . وهذا ما يجب أن أذكره في معنى ما صنعتته واختصرته من علوم الأوائل . قصدت به مذاكرة الحكماء الأفاضل . والعقلاء الأمثال . . . وقلت في ذلك كما قال جالينوس في كتابه « في النبض الكبير » : ليس خطابي في هذا الكتاب لجميع الناس بل خطابي لرجل منهم يوازي ألوف رجال بل عشرات ألوف رجال ، إذ كان الحق ليس هو بأن يدركه الكثير من الناس لكن هو بأن يدركه الفهم الفاضل منهم ، ليعرفوا رتبتي في هذه العلوم ويتحققوا منزلتي من إثبات الحق ومن طلب القربة إلى الله في إدراك العلوم والمعارف

النفسية .. فإن ثمرة هذه العلوم هو علم الحق والعمل بالعدل في جميع الأمور الدنيوية ، والعدل هو محض الخير ، والذي يفعله يفوز من العالم الأرضي بنعيم الآخرة السامى ، ويعتاض عن صعوبة ما يلقاه من ذلك مدة البقاء المنقطع في دار الدنيا بدوام الحياة منعماً في الدار الأخرى . وإلى الله تعالى أرغب في توفيقى لما قرَّب إليه ، وأزلف لديه .

ويذكر ابن أبى أصيبعة أنه وجد في نهاية الرسالة تاريخ كتابتها وهو ذو الحجة سنة سبع عشرة وأربعمائة ، ويذكر بعقبه ما ألفه ابن الهيثم إلى سلخ جمادى الآخرة سنة تسع عشرة وأربعمائة . ويتلو ابن أبى أصيبعة هذه المؤلفات الجديدة بفهرس وجده لكتب ابن الهيثم إلى آخر سنة تسع وعشرين أى إلى ما قبيل وفاته بمدة قصيرة . وبلغت كتبه ومقالاته في هذا الفهرس الأخير نحو مائتى كتاب ومقالة . وهو إنتاج ضخم يدل على مدى ما قام به ابن الهيثم في أبحاث الفلسفة الإسلامية من جهد مُضْن ، وهو جهد خصب قدره الأوربيون منذ العصور الوسطى ، فترجموا كثيراً من آثاره إلى اللاتينية . كما نقلوا آراءه وأفكاره إلى لغاتهم الحديثة .

ابن سينا

أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق ، ولد لأسرة إيرانية سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠م بالقرب من بُخَارَى ، وكان أبوه يتصرف في أعمال قرية خَرَمِيشْتَن للسامانيين ، وكان بجانبها قرية تسمى أَفْشَنَة تزوج منها ، وسكن فيها ، وبها ولد له هذا الفيلسوف العظيم . وقد عني به منذ صغره ، فأحضر له المعلمين ، وجهه إلى دراسة الحساب والفلسفة ، ولم يلبث أن تيقظت في الصبي مواهبه ، فأقبل على دراسة الطب وما ترجم عن اليونان ، وتمثل كل ذلك ، كما تمثل كثيراً من معارف العرب والفرس والهند . ثم تحول يؤلف مستغلاً كل ما عرفه من مناجم الشرق والغرب ، وكاد لا يترك ميداناً من ميادين المعرفة إلا ألف فيه ، فألف في الطب والطبيعة وعلم الأحياء ، وفي الفلك والرياضة والكيمياء ، وفي المنطق والأخلاق والسياسة والتصوف وعلم الكلام ، ومن أهم ما اشتهر من كتبه في الفلسفة « النجاة » و « الشفاء » ونال شهرة مدوية في الغرب بكتابه « القانون » في الطب ، إذ كان مرجع القوم حتى القرن السادس عشر .

وقد أثر ابن سينا تأثيراً عميقاً في مجال الفكر الفلسفي الإسلامي ، وكان تأثيره في الفكر الأوروبي واسعاً ، فقد تُرجم له غيرُ كتاب إلى اللاتينية ، حتى إذا كان العصر الحديث عني به المستشرقون في اللغات الأوروبية المختلفة ، وكتبوا في فلسفته أبحاثاً واسعة . ومن حين قريب أقيمت الاحتفالات لعيده الأثني في الشرق والغرب تقديرًا لما قدم من خدمات للعلم والفلسفة والفكر الإنساني ، مما جعله فخرًا لقومه والعرب ، بل للإنسانية والحضارة العالمية . ولا عجب أن لُقِبَ منذ عصره بالشيخ الرئيس .

وخلّف ابن سينا كثيراً من المؤلفات والمقالات التي تعد بالمئات ، كما خلّف ترجمة ذاتية قصيرة يحدها القارئ في ابن أبي أصيبعة . وصف بها شطراً من حياته منذ عُني أبوه بتعليمه إلى السنة الثانية والثلاثين من عمره . وهي تجري على هذا النمط :

« قال الشيخ الرئيس : إن أبي كان رجلاً من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى في أيام نوح بن منصور الساماني أمير هذا الإقليم ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل في أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى ، وهي من أمهات القرى وبقرها قرية يقال لها أفشنة ، تزوج أبي منها بوالدتي وقطن بها وسكن ، وولدتُ منها بها . ثم ولدتُ أخى ، ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأحضرتُ معلم القرآن ومعلم الأدب . وأكملت العشر من العمر ، وقد أتيتُ على القرآن وعلى كثير من الأدب ، حتى كان يُقضى مني العجب . وكان أبي محمد أجاب داعي المصريين ، ويعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه ويعرفونه هم ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم ، وأدرك ما يقولونه ولا تقبله نفسى . وابتدعوا يدعوننى أيضاً إليه ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وأخذ (أبي) يوجهنى إلى رجل كان يبيع البقل ، ويقوم بحساب الهند حتى أتعلمه منه . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى وكان يُدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . وقيل قدومه كنتُ أشغل بالفقه والتردد فيه إلى إسماعيل الزاهد ، وكنتُ من أجود السالكين . وقد ألقت طرق المطالبة ووجوه الاعتراض على الحبيب ، على الوجه الذى جرت عادة القوم به . ثم ابتدأت بكتاب إيساغوجى على الناتلى . ولما ذكر لى حدّ الجنس أنه هو المقول على كثيرين مختلفين بالنوع فى جواب ما هو ؟ ، أخذتُ فى تحقيق هذا الحد بما لم يسمع بمثله ، وتعجب منى كل العجب ، وحدّثَ والدى من شغلى بغير العلم . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه ، حتى قرأت ظواهر المنطق عليه ، وأما دقائقه فلم يكن عنده

فيها خبرة . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى وأطالع الشروح حتى أحكت علم المنطق . وكذلك كتاب أقليدس قرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره . ثم انتقلت إلى المجسطى ، ولا فرغت من مقدماته وانتهيت إلى الأشكال الهندسية قال لى الناتلى : تولّ قراءتها وحلّها بنفسك ، ثم اعرضها علىّ لأبيّن لك صوابها من خطئها ، وما كان الرجل يقوم بالكتاب . وأخذت أحلّ ذلك الكتاب ، فكيم من شكل ما عرفه إلى وقت ما عرضته عليه وفهمته إياه . ثم فارقتى الناتلى متوجّهاً إلى كركانج . واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من القصص والشروح من الطبيعى والإلهى . وصارت أبواب العلم تفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب ، وصرت أقرأ الكتب المصنفة فيه ، وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة ، فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة ، حتى بدأ فضلاء الطب يقرءون علىّ علم الطب ، وتعهدت المرضى ، فافتتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف . وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه وأنا فى هذا الوقت من أبناء ست عشرة سنة .

فابن سينا يقول إن أباه كان من موظفى الدولة السامانية وأنه نشأ فى بخارى عاصمتهم ، وقد أحضر له المعلمين يعلمونه العلوم الشرعية واللغوية ، فحفظ القرآن وكثيراً من الأشعار ، وأظهر ذكاء نادراً ، ويقول إن أباه كان يؤمن بمبادئ الشيعة الإسماعيلية وما يقولونه فى النفس والعقل وإنه كان يعرف أطرافاً من الفلسفة والهندسة وحساب الهند ، وكذلك كان أخوه . وكانا يجرّانه إلى معتقدهما الإسماعيلى فكان يزورّ عنه ولا يجد له قبولاً فى نفسه . وظل على ذلك بقية حياته ، يحفو الشيعة ومذاهبهم ، ويؤمن بما يؤمن به أهل السنّة من معتقدات .

وجنّهُ أبوه إلى تعلم الحساب والعلوم الشرعية ، فاتقنهما ، وتصادف أن ألمّ ببخارى متفلسف يدعى الناتلى فأنزله أبوه داره ، وألحق به ابنه ليخرجه فى العلوم العقلية والفلسفية ، وكان أول ما تلقن منه المنطق فى كتاب إيساغوجى ، ولم يكده يمضى معه فيه حتى لفته بذكائه الخارق ، وعكس الموقف ، فكان ابن سينا

يشرح لأستاذه المسائل والدقائق . واكتفى بما عند أستاذه في الفن وتحول يطالع الكتب والشروح حتى حذقه ومهر فيه ، وكذلك كان شأنه مع أستاذه في كتاب أقليدس الخاص بعلم الأشكال الهندسية ، فإنه قرأ معه خمسة أشكال أو ستة ثم استقل بالكتاب . وصنع نفس الصنيع بكتاب المجسطى لبطليموس ، وهو في علم الهيئة والنجوم وحركات الكواكب والأفلاك . ولم يكن الناتلي يفهم مسائل هذا الكتاب حتى الفهم فكان يصورها ويشرحها له . ثم فارقه الناتلي فاشتغل بتحصيل الكتب وحده . ورغب في علم الطب ، فقرأ كتبه المؤلفة ، ولم يلبث أن برز فيه وأصبح مرجع المشتغلين به ، وانفتح عليه كثير من أبواب المعالجات عن طريق التجربة . وهو في ذلك لا ينسى حظه من الدراسات الفقهية . وأصاب كل هذا النبوغ وسنه لم تتجاوز السادسة عشرة . ويقول :

« ثم توفرت على العلم والقراءة سنة ونصفاً ، فأعدت قراءة المنطق وجميع أجزاء الفلسفة . وفي هذه المدة ما نمت ليلة واحدة بطولها ، ولا اشتغلت في النهار بغيره . . . وكلما كنت أتحيّر في مسألة أو لم أكن أظفر بالحد الأوسط في قياس ترددت إلى الجامع وصليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فُتِح لي المغلق وتيسر المتعسر . وكنت أرجع بالليل إلى داري ، وأضع السراج بين يدي وأشتغل بالقراءة والكتابة ، فهما غلبني النوم أو شعرت بضعف عدلت إلى شرب قدح من الشراب ، ريثما تعود إلى قوتي . ثم أرجع إلى القراءة ، ومهما أخذني أدنى نوم أحلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى إن كثيراً من المسائل اتضح لي وجوها في المنام . ” وما زلت “ كذلك حتى استحکم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الإمكان الإنساني . وكل ما علمته في ذلك الوقت فهو كما علمته الآن ، لم أزد فيه إلى اليوم ، حتى أحكمت علم المنطق والطبيعي والرياضي . ثم عدلت إلى الإلهي وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة ، فما كنت أفهم ما فيه . والتبس عليّ غرض واضعه ، حتى أعدت قراءته أربعين مرة . وصار لي محفوظاً ، وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود به . وأيسست من نفسي ، وقلت هذا كتاب لاسبيل

إلى فهمه ، وإذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين ، وبيد دلال مجلدٌ ينادى عليه ، فعرضه عليّ ، فرددته رد متبرم ، معتقداً أن لا فائدة في هذا العلم ، فقال لي : اشتر مني هذا ، فإنه رخيص ، أبيعك بثلاثة دراهم ، وصاحبه محتاج إلى ثمنه ، فاشتريته . فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، فرجعت إلى بيتي ، وأسعرت في قراءته ، فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب ، بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب . وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يومه بشيء كثير على الفقراء شكراً لله تعالى . وكان سلطان بخاري في ذلك الوقت نوح بن منصور — توفي سنة ٩٩٧/٨٣٨٧م — واتفق له مرض تلجٌ " ترداد " الأطباء فيه ، وكان اسمي اشتهر بينهم بالتوفر على القراءة ، فأجروا ذكرى بين يديه ، وسألوه إحضاري ، فحضرت ، وشاركتهم في مداواته . وترسّمت بخدمته ، فسألته يوماً الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لي ، فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة : في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها على بعض ، في بيت منها كتبُ العربية والشعر . وفي آخر الفقه . وكذلك في كل بيت كتبُ علم مفرد ، فطالعت فهرس كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها . ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ولا رأيته أيضاً من بعد . فقرأت تلك الكتب وظفرت بفوائدها وعرفت مرتبة كل رجل في علمه . فلما بلغت ثمانى عشرة سنة من عمري فرغت من هذه العلوم كلها . وكنت إذ ذاك للعلم أحفظاً . ولكنه اليوم معي أنضج ، وإلا فالعلم واحد لم يتجدد لي بعده شيء .

وهذه القطعة تنتم سابقتها وترينا أن عقل ابن سينا نضج مبكراً ، وهو هنا يقول إنه توفّر نحو ستين على قراءة المنطق والفلسفة ويفرّعها المختلفة ، يقرأ على نفسه ويفهم بدون معلم ، وكان كلما تحير في مسألة تردد إلى الجامع وصلى متلهياً إلى ربه أن يفتح له ما استغلق عليه . وكان يعكف في الليل على الكتابة

والقراءة ، وكلما غلبه النوم أو شعر بفتور تناول قدحاً من الشراب ، حتى تعود إليه قوته . ولعل في هذا ما يشير إلى ما اشتهر به من إغراقه في اللذات مما خالف فيه سيرة الفلاسفة الأقدمين وسيرة متفلسف مثل الرازي وابن الهيثم معاصره . ويقول إنه بلغ من شدة تعلقه بالمسائل الفلسفية ومشكلاتها أنه كان يحلم بها ، وربما وجد حلّ بعض المشكلات في نومه . ومعنى ذلك أن عقله الباطن كان يشرك عقله الظاهر في الانشغال بمسائل الفلسفة ، حتى كانت تترأى له في الحلم بأعيانها . وما زال مثابراً حتى حذق المنطق والطبيعيات والرياضيات ، وانتقل من ذلك إلى ما وراء الطبيعة من الإلهيات ، فاستغلفت عليه . ولم تنفتح له مسائلها بتاتاً . حتى يئس من نفسه ، وبينما هو في هذا اليأس يقع له كتاب للفارابي ، فيحل له كل المسائل والمشاكل في الفلسفة الإلهية . وابن سينا بهذا التصريح يطلعنا على مصدر مهم من مصادر ثقافته الفلسفية .

ويتصادف أن يمرض سلطان بخارى . ويعجز الأطباء عن شفائه ، ويشيرون عليه باستحضار ابن سينا ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ، ويستأذنه في دخول مكتبته التي جمعها هو وآباؤه من السامانيين ، فيأذن له . ويدخلها فيجدها مليئة بالنفائس والذخائر في جميع الفنون والعلوم وما كتبه الفلاسفة الأوائل ، فيعب منها عباً . ويمتليء منها امتلاء . وسنه لم تتجاوز الثامنة عشرة . ويلاحظ أن معارفه تمت في هذا الحين . وطارت شهرته في الناس من حوله ، فأخذوا يطلبون إليه أن يؤلف لهم بعض الكتب . يقول :

« وكان في جوارى رجل يقال له أبو الحسين العروضي فسألني أن أصنف له كتاباً جامعاً في هذا العلم " الفلسفي " فصنفت له المجموع .. أتيت فيه على سائر العلوم سوى الرياضي ، ولي إذ ذاك إحدى وعشرون سنة من عمري . وكان في جوارى أيضاً رجل يقال له أبو بكر البرقي فقيه النفس متوحد في الفقه والتفسير والزهدي مائل إلى هذه العلوم : فسألني شرح الكتب له ، فصنفت له كتاب الحاصل والمحصل في قريب من عشرين مجلدة ، وصنفت له في الأخلاق كتاباً

سميته كتاب البر والإثم . وهذان الكتابان لا يوجدان إلا عنده . إذ لم يُعبر أحدًا
ينتسخ منهما . ثم مات والدي وتصرفتُ في الأحوال ، وتقلدت شيئاً من أعمال
السلطان . ودعيتُ الضرورة إلى الإخلال ببخارى والانتقال إلى كركانج .
وكان أبو الحسين السهلي المحب لهذه العلوم بها وزيراً . وقدمت إلى الأمير بها
وهو علي بن مأمون . وكنت على زى الفقهاء . وأثبتوا لي مشاهرة دائرة بكفاية
مثلى . ثم دعت الضرورة إلى الانتقال إلى نيسابور ومنها إلى أبيسورد ، ومنها إلى طوس
ومنها إلى شققان ومنها إلى سمنان ومنها إلى جاجر ثم رأس حد خراسان ، ومنها إلى
جرجان ، وكان قصدي الأمير قابوس ، فاتفق في أثناء هذا أخذ قابوس وحبيه
في بعض القلاع وموته هناك . ثم مضيت إلى دهبستان . ومرضتُ بها مرضاً صعباً
وعدت إلى جرجان . . وأنشأت في حالي قصيدة ، فيها بيت القائل :

لما عظمت فليس مصرٌ واسعى لما غلا ثمنى عدمتُ المشتري «

وحتى الآن لم يكن ابن سينا قد ألف كتبه الفلسفية والطبية الكبيرة . ولكن
سيرته الشخصية تنهى . ويكتب لنا بقية ترجمته تلميذه أبو عبيد الجورجاني الذي
لازمه في جورجان وكانت سنه حينئذ اثنتين وثلاثين ، وظل معه ، ولم يفارقه بقية
حياته . وقد ذكر لنا ابن سينا في هذه القطعة الأخيرة أنه تقلد بعض أعمال
السامانيين . ثم دعت الضرورة إلى التحول عن بخارى . ولا يفصح عن هذه
الضرورة ، ولم تكن سوى استيلاء محمود الغزنوي عليها واستئصاله لشأفة السامانيين
منها . وانتقل ابن سينا إلى كركانج عاصمة إمارة خوارزم . وتحدثنا كتب
التاريخ أن محموداً الغزنوي طلبه من أميرها . فرفض صاحبنا وهرب في البلاد التي
تسمىها . وبذلك تخلص من قبضة الأمير الغزنوي . وما زال في هربه وفراجه حتى
وصل إلى جرجان والتقى فيها بتلميذه أبي عبيد . ولم يشأ ابن سينا أن يعرفنا بهذه
التفاصيل السياسية . وظل بقية حياته يشغل من بلاط أمير في إيران إلى بلاط أمير
آخر مشتغلاً بالشئون السياسية وتدبير أمور الإمارات حيناً . وبالتعليم والتأليف
والتصنيف حيناً آخر ، حتى لبى نداء ربه في همدان سنة ٤٢٨ هـ / ١٠٣٦ م .

متفلسفة مختلفون

ما بين أيدينا من أخبار المتفلسفة وخاصة المتطبيين منهم يدل على أن غير واحد من جهابذتهم عني بترجمة حياته وحكاية سيرته ، أخذاً بسنة جالينوس في القديم وما قدمنا من أمثلة عند حنين بن إسحق ومحمد بن زكريا الرازي وابن الهيثم وابن سينا .

وقد احتفظ ابن أبي أصيبعة بترجمتين شخصيتين لعلي بن رضوان الطبيب المصري وعبد اللطيف البغدادي ، والأول أشهر أطباء مصر في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) . ولد في الجزيرة لرجل فقير كان يعمل فترّاناً ، ولما رأى في ابنة معلم النجابة عني به ، فأسلمه إلى بعض المعلمين ، ولم يلبث أن نقله إلى القاهرة وهو لا يزال في العاشرة ، ليكمل فيها تعلمه . وفي سن الرابعة عشرة وجد في نفسه ميلاً شديداً إلى تعلم الطب والفلسفة ، فعكف عليهما . يقول ابن رضوان :

« ولم يكن لي مال أفق منه ، فلذلك عرض لي في التعليم صعوبة ومشقة ، فكنت مرة أتكسب بصناعة القضايا بالنجوم ، ومرة بصناعة الطب ، ومرة بالتعليم ، ولم أزل كذلك وأنا في غاية الاجتهاد في التعليم إلى السنة الثانية والثلاثين ، فإني اشتهرت فيها بالطب . وكفاني ما كنت أكسبه بالطب ، بل كان يَفْضَلُ عني إلى وقتي هذا ، وهو آخر السنة التاسعة والخمسين ، وكسبت مما فضل عن نفقتي أملاً كافي هذه المدينة .. وكنت منذ السنة الثانية والثلاثين إلى يومى هذا أعمل تذكرة لي ، وأغيرها في كل سنة إلى أن قررتها على هذا التقرير الذى أستقبل به السنة الستين . من ذلك أتصرف كل يوم في صناعتي بمقدار ما يغني من الرياضة التى تحفظ صحة البدن ، وأغتذى بعد الاستراحة من الرياضة غذاء

أقصد به حفظ الصحة . وأجتهد في حال تصرفي في التواضع والمداراة وغيث الملهوف وكشف كربة المكروب وإسعاف المحتاج . وأجعل قصدي في كل ذلك الالتذاذ بالأفعال والانفعالات الحميية . ولا بد أن يحصل مع ذلك كسب ما يُنفق ، فأنفق منه على صحة بدني وعمارة منزلي نفقة لا تبلغ التبذير ، ولا تنحط إلى التقدير ، وتلزم الحال الوسطى بقدر ما يوجبه التعقل في كل وقت ، وأنفق آلات منزلي ، فما يحتاج إلى إصلاح أصلحته ، وما يحتاج إلى بدل بدله وأتعرّف ما يمكنني تعريفه من الأمور المزمعة وأخذ له أهبة ، وأجعل ثيابي مزينة بشعار الأخيار والنظافة وطيب الرائحة . وألزم الصمت وكف اللسان عن معائب الناس ، وأجتهد أن لا أتكلّم إلا بما ينبغي . وأتوقّي الأيّمات ومثالب الآراء ، فأحذر العُجب وحب الغلبة ، وأطرح الهمّ الحرصيّ والاضتمام ، وإن ذهني أمر فادح أسلمت فيه إلى الله تعالى ، وقابلته بما يوجبه التعقل من غير جبن ولا تهور . ومن عاملته عاملته بدأ بيد ، لا أسلف ولا أتسلف إلا أن أضطرّ لذلك ، وإن طلب مني أحد سلفاً وهبت له ولم أردّ منه عوضاً . وما بقى من يوى بعد فراغي من رياضتي صرفته في عبادة الله سبحانه وأتدبر مقالة أرسططاليس في التدبير وأخذ نفسي بلزوم وصاياه بالغداة والعشي . وأنفق في وقت خلوقي ما سلف في يوى من أفعالي وانفعالاتي ، فما كان خيراً أو جليلاً أو نافعاً سررت به ، وما كان شراً أو قبيحاً أو ضاراً اغتممت به ، ووافقت نفسي أن لا أعود إلى مثله .

ثم يذكر لنا ابن رضوان الكتب الفلسفية والطبية التي كان يعنى بقراءتها ويستهدى بها ، ولا يسرد علينا فهرست مؤلفاته إنما يسردها ابن أبي أصيبعة . وواضح مما نقلناه من سيرته أنه عنى فيها بالحديث عن سلوكه . وهو سلوك فاضل يقوم على الاعتدال في كل شيء ، ومن طريف ما ذكره أنه كان يعد السلف تلقاً غير راجع ، وأنه كان حين يُسلف يظن نفسه واهباً ولا ينتظر بعد ذلك الرجوع في هبته . ولعل من الغريب أن هذه السيرة المعتدلة تخالف كل المخالفة ما عرف عنه في مؤلفاته من تشجيعه على سابقه ومعاصريه ، أمثال حنين بن

إسحق ومحمد بن زكريا الرازي من السابقين وابن بطلان البغدادي من المعاصرين ؛ ولكن لعل هذا الخلق الجامح في تأليفه لم يكن خلقه في سلوكه وحياته بين الناس . وسيرة عبد اللطيف البغدادي التي نقلها عنه ابن أبي أصيبعة لا تتجه هذا الاتجاه من حيث حكاية السلوك الشخصي ، وإنما تتجه إلى حكاية تعلمه وتنقله في البلاد ، فقد رحل إلى الموصل ، ومنها إلى الشام ، حيث حاول الاتصال بصلاح الدين الأيوبي ورجاله من أمثال القاضي الفاضل ، وتوجه إلى مصر ، ثم عاد إلى الشام ، واتصل بعد وفاة صلاح الدين بابنه العزيز ، ودخل مصر في ركابه ، ثم تحول إلى الشام وتغلغل في آسيا الصغرى ، ورجع أخيراً إلى حلب . وهو يقص علينا ذلك كله منوهاً بفضل علمه ومعرفته في الطب وغيره ، ويبدأ حديثه أو سيرته بأنه ولد في بغداد بدرب الفالودج سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وقد أخذه أبوه بالتعليم منذ نعومة أظفاره ، فسمع الحديث النبوي ، ونال فيه إجازات مختلفة ، وأثناء ذلك حفظ القرآن الكريم وفصيح ثعلب ومقامات بدیع الزمان والحريري وديوان المتنبي ومختصر في الفقه وآخر في النحو . واختلف في دروس العلم الأخير إلى ابن الأنباري وغيره ، ويقول إنه أكتب على كثير من أمهات اللغة والنحو ومشكل القرآن وكتب الغزالي ، ثم انتقل إلى كتب ابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية ، ولم يزل على ذلك إلى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م فتحول عن بغداد إلى الموصل ، وهناك بدأ الاشتغال بالتدريس ، فأعجب به الناس — كما يقول — لسعة محفوظه وسرعة خاطره . وظل على ذلك عاماً ، ثم دخل دمشق ، وفيها ناظر العلماء ، وغلبهم بحجة لسانه ، وألف بعض كتب في الحديث والنحو وعلم الكلام .

ويحكى أنه توجه بعد ذلك إلى بيت المقدس ثم إلى صلاح الدين بظاهر عكا ، وهو يحاصرها ، محاولاً أن يستردها من أيدي الصليبيين . وتعرف على القاضي الفاضل ؛ يقول : « ودخلنا عليه فرأيت شيخاً ضيلاً كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات لقوة حرصه

في إخراج الكلام وكأنه يكتب بجملة أعضائه . وسأله القاضي الفاضل عن مقصده ، فقال له إني أريد مصر ، فكتب له ورقة صغيرة إلى وكيله بها ، وكان ابن سناء الملك الشاعر المصري المشهور ، فأكرمه وأنزله داراً جاءته فيها الهدايا والصلوات من كل جانب . ويقول إنه كان يريد أن يلتقي بمصر بثلاثة أشخاص من المتفلسفة هم ياسين السيائي وموسى بن ميمون اليهودي وأبو القاسم الشارعي ، والتي بهم ، ولم يعجب بأولم إذ وجدته مشعبداً ، أما موسى فوجدته فاضلاً لا في الغاية ، وقرأ له كتاباً في الطب ، وقال إنه نقله عن جالينوس وغيره دون زيادة ، وأما أبو القاسم فوجدته يسير سيرة الحكماء العقلاء لا يشغله شيء عن طلب الفضيلة ، قيماً بكتب القدماء وما كتبه الفارابي ، ويزعم أنه كان إذا تناقش معه غلبه بقوة الجدل وفضل اللسن ، ويغلبه أبو القاسم بقوة الحججة وظهور المحجة . ثم عاد إلى القدس وألم بصلاح الدين ، ووصفه ، فقال : « رأيت ملكاً عظيماً عملاً العين روعة والقلوب محبة ، قريباً بعيداً ، سهلاً مجيباً ، وأصحابه يتشبهون به ، ويتسابقون إلى المعروف كما قال تعالى : ” وزعنا ما في صدورهم من غيل “ . وأول ليلة حَضَرَتْهُ وجدت مجلساً حافلاً بأهل العلم ، يتذاكرون في أصناف العلوم ، وهو يحسن الاستماع والمشاركة ، ويأخذ في كيفية بناء الأسوار وحفر الخنادق ويتفقه في ذلك . . وكان مهتماً في بناء سور القدس وحفر خندقه يتولى ذلك بنفسه ، وينقل الحجارة على عاتقه ، ويتأسي به جميع الناس الفقراء والأغنياء والأقوياء والضعفاء ، حتى العماد الكاتب والقاضي الفاضل ” وزيراه “ ويركب لذلك قبل طلوع الشمس إلى وقت الظهر . »

وقرر له صلاح الدين وأولاده راتباً بدمشق ، فمكث بها سنوات مكباً على الاشتغال بالعلم والتحصيل وإقراء الناس بالجامع ، حتى أتيح له أن يعود إلى مصر مع سلطانها العزيز سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م ؛ فلزم الشيخ أبا القاسم الشارعي وأجرى عليه السلطان ما يكفيه ، وكان يقرئ الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة ، ووسط النهار يأتي من يقرأ عليه الطب وغيره ، ويرجع الترجمة الشخصية

آخر النهار إلى الأزهر فيقرأ قوم آخرون ، وفي الليل يشتغل بالقراءة والتأليف .
وحدث في مصر وباء وغلاء فاحش فوصفه ، ووصف آثار الأقدمين ومختلف
الشئون الاجتماعية والعمرائية بمصر ، وذلك في رسالته المشهورة التي سماها « الإفادة
والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » وتحدث عما
تختص به مصر من النبات والحيوان حديث العالم المتفلسف والطبيب الحاذق .

ولما ملك مصر السلطان العادل توجه إلى القدس وأقام بها مدة ، يشتغل عليه
الناس فيها بكثير من العلوم ، وصنف غير كتاب ، ثم زایلها إلى دمشق سنة
٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م وأقبل عليه التلاميذ من كل حدب يأخذون عنه مختلف
العلوم وخاصة علم الطب الذي برع فيه ، وقد صنف فيه كتباً كثيرة حتى عُرف به .
ثم سافر إلى حلب وقصد بلاد آسيا الصغرى وعاد منها إلى حلب ثانية وهو دائم
التأليف والتصنيف ، مقبل على التدريس وإفادة الطلاب والتلاميذ .

ولما لحصنا هذه السيرة تلخيصاً ، وهي طويلة ، فليرجع إليها في كتاب طبقات
الاطباء لابن أبي أصيبعة من أراد . وحين ننعم النظر نجد كثيراً من تراجمه
تُنقَل أخبارها مباشرة عن أصحابها ، فهي أشبه بتراجم شخصية وإن لم تكتب
في شكل سيرة ذاتية .

ومن المحقق أن كثيراً من تراجم المتفلسفة الشخصية فُقدت وضاعت في
الطريق ، ومن طريف ما أُرعنهم ترجمة السموعل بن يحيى المغربي لنفسه ، وكان
يهودياً فأثار الله بصيرته واعتنق الإسلام ، وهو يقص علينا في ترجمته كيف
بزغ له نور الحق وأضاء جوانب نفسه فأسلم وجهه لله ، ويستلها بتعريفنا
بأبيه وأنه كان من مدينة فاس بالمغرب ومن أعلم أهل زمانه بعلوم التوراة واللسان
العبري ، وترك هذه المدينة إلى بغداد ، وفيما تزوج من أمه اليهودية . وشغله أبوه في
أول نشأته بالكتابة بالقلم العبري وعلوم التوراة وتفسيرها حتى إذا بلغ الثالثة عشرة
اختلف إلى معلم الحساب والزيجات والطب والحساب الديواني وعلم المساحة والجبر
والهندسة وغير ذلك من العلوم الرياضية ، وشُغف أكثر ما شُغف بالطب وفنون

العلاج ، ويقول إنه اخترع أدوية لم يسبق إليها .
ثم يذكر أنه قبل اشتغاله بهذه العلوم كان معنياً بالحكايات والأخبار والخرافات ؛
ثم مال إلى قراءة كتب التاريخ من مثل تجارب الأمم لابن مسكويه والطبرى ، وكانت
تمر به أخبار النبي صلى الله عليه وسلم وغزواته وما ظهر على يده من المعجزات
وخصه الله به من الكرامات ، وحباه به من النصر والتأييد فى الغزوات . ودفعه
ذلك إلى تتبع سيرة الرسول ، فعرف أنه نشأ يتيماً ضعيفاً ، على خلق عظيم ، وبعث فى
قومه ، فجاهداهم ودعاهم بالموعظة الحسنة ، وهم يعادونه ويعاندونه ، حتى أذِنَ
له فى الهجرة إلى غير دارهم ، فهاجر إلى المدينة ، ومن هناك أخذت أشعة
الإسلام تنطلق فى دروب الجزيرة العربية ، وفُتحت مكة ، ودخل العرب فى دين
الله أفواجا ، ثم انساحوا يفتحون البلاد ، فهزموا فارس والروم .

ويقول السموعل إن اطلاعه على هذه السيرة النبوية الدكية هو الذى جعله يؤمن
بالإسلام ، وكان مما بعثه على هذا الإيمان القرآن الكريم وما يتضمن من بلاغة
فوق مستوى البشر . وأخذ يراجع نفسه ، متأملاً فى اختلاف الناس فى الديانات
وطالع الفصل الخاص بـ **بِرَرَزَوِيَه** فى كتاب كليله ودمنة ، وقد سبقت الإشارة
إليه ، وهذه هذا الفصل إلى تحكيم عقله ، فرأى الناس إنما يؤمنون بعامة
الأنبياء عن طريق ما يرويه السلف عنهم رواية تواتر ، وأن الأنبياء فى ذلك
متساوون ، فما دما قد سلمنا بالنبوة ، وصدقنا نبياً وجب أن نصدق الآخرين .
يقول :

« لا يجوز للعاقل أن يصدق واحداً ويكذب واحداً من هؤلاء الأنبياء عليهم
السلام ، لأنه لم ير أحدهم ، ولا شاهد أحواله إلا بالنقل ، وشهادة التواتر موحدة
لثلاثتهم ، ” موسى وعيسى ومحمد“ فليس من العقل والحكمة أن نصدق أحدهم
ونكذب الباقيين ، بل الواجب عقلاً أن نصدق الكل ، فأما تكذيب الكل فإن
العقل لا يوجهه أيضاً ، لأننا إنما نجدهم أتوا بمكارم الأخلاق وندبوا إلى الفضائل
ونهاوا عن الرذائل ، ولأننا نجدهم قد ساسوا العالم سياسة بها صلاح أهله . فصَحَّ

عندى بالدليل القاطع نبوة المسيح والمصطفى عليهما السلام وآمنت بهما .

ثم يقص رؤيا رأى فيها أحد أنبياء بنى إسرائيل ، وفيها أقرأه آيات من التوراة تشير إلى رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، ونام عقيبا ، قرأى صاحب الرسالة المحمدية يدعوه إلى الإسلام ، فلخل فى دين الله وهو شديد الفرح والسرور بما انكشف له من الهداية . وقد توفى سنة ٥٧٠ هـ / ١١٧٤ م .

ومن غير شك وراء هؤلاء المتفلسفة الذين عُنُوا بترجمة حياتهم من ذكرناهم كثيرون سرّ دُوا وأخبارهم وقصّوا حياتهم ، ولكن أكثر ذلك سقط من يد الزمن ولم تبق إلا هذه السّيرُ القليلة التي تحدثنا عنها هذا الحديث المجمل .

الفصل الثانى

تراجم علمية وأدبية

١

علماء وأدباء يتحدثون عن أنفسهم

لعل أقدم حديث لأدباء العرب عن أنفسهم هو ما أُثِرَ عن شعراء العصر الجاهلى فى فخرهم وحماستهم ، وهو حديث شعراء لا يراد به إلى حكاية الواقع تماماً ، بل تلخه المبالغة والتحويل ، وظل ذلك غالباً على الشعراء فى العصور الإسلامية المختلفة .

وحينما أخذ العرب يدوّنون أخبار شعرائهم وأدبائهم وعلمائهم كانوا ينقلون عنهم مباشرة كثيراً مما يدوّنونه ، على نحو ما نعرف عن الأصمعى مثلاً ، فإن كتب الأدب تتناقل عنه أخباراً مختلفة مع الرشيد ووزرائه وأدباء عصره وعلمائه . وإذا تصفحنا كتاب تراجم مثل الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني وجدنا كثيراً مما يقصّه عن الشعراء والمغنين يُنقَلُ عن أفواههم ، وخير مثل لذلك ترجمة إبراهيم الموصلى مغنى الرشيد المشهور ، فإنه يروى أخباره فيها عن ابنه إسحق ، وكثير منها مما حدث به أبوه .

ونفس كتابات الأدباء فى العصر العباسى كثيراً ما تتضمن أخبارهم وبعض وقائع حياتهم ، ولعل الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م أكثر من عسى حتى عصره بتصوير نفسه فى كتاباته ، بحيث نستطيع أن نستخرج من كتبه ورسائله أكثر الخيوط التى ألفت نسيج حياته من الوجهتين الثقافية والمعاشية . ويجرى معه فى هذا الطريق ممن كانوا يعجبون به وبأسلوبه أبو حيان التوحيدى المتوفى سنة

٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م إذ كان يعاني غربة في أهل زمانه ، ولم يجد من بينهم من يعرف فضله وعلمه وأدبه، ويقدره حق قدره، فتولى ساخطاً مغضباً، يقصّ قصته، من لقائه للوزراء وغيرهم ، ممن وضعوه دون منزلته ، وأخروه عن مرتبته ، وفي مقدمتهم الوزيران المشهوران: ابن العميد والصاحب بن عباد، فألف فيهما كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، روى فيه تجربته معهما، وهى تجربة قاسية، تحوّل وصفها عنده إلى سياط من الكلام، تصور محنته فيهما وسوء حظه . وكان على ما يظهر متعجرفاً ثقيل الروح ، فازورّ عنه الوزيران ونبله الناس ، وتصور ذلك رسالته « فى الصداقة والصديق » يقول :

« فقدت كل مؤنس وصاحب ومرفق ومشفق، والله لربما صليت فى المسجد فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فيقال أو عصّار أو نداء أو قصّاب ومن إذا وقف إلى جانبي أسدنى بصنانه وأسكرنى بنسّنه، فقد أمسيت غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقفاً ما لا بد من حلوله ، فشمسُ العمر على شمساً، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وبلغ من سخطه على الناس أن أحرق كتبه فى أواخر حياته، وكتب إليه بعض أصحابه يعدله على صنيعه ، فأجابه برسالة طويلة ، ومن قوله فيها :

« إني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً مثيباً ، فشق علىّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها .. وعياني منهم فى الحياة هو الذى يحقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحّ لى من أحدهم وداد ، ولا ظهر لى من إنسان منهم حفاظ ، ولقد اضطرت بينهم بعد الشهرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاظم الرياء والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحرز أن

يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم . ومع ذلك فقد بقيت لنا بعض كتبه ، وهي تفيض بهذه الإشارات إلى حاله النعسة .

وقد أخذت في عصره تكثر كتب الجغرافيا والرحلات ، وهي تتضمن كثيراً من أخبار أصحابها وحوادثهم في البلدان المختلفة التي كانوا يشاهدونها ويلمون بها واصفين أوراقلين . ويُجمل لنا المقدسي في أوائل كتابه « أحسن التقاسيم » ما عاناه في رحلاته ، حتى كان يتنكر كثيراً ويدخل في غير طائفة من الطوائف الإسلامية ، يقول :

« لم يبق شيء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيباً غير الكدِّية ” الشحاذة “ وركوب الكبيرة ، فقد تفقّهت وتأدّبت وتزهدت وتعبّدت . وفقّمت وأدّبت ، وخطبت على المنابر ، وأذّنت على المنائر ، وأيمت في المساجد ، وذكّرت في الجوامع ، واختلّفت إلى المدارس ، ودعوت في المحافل ، وتكلمت ” ناظرت “ في المجالس ، وأكلت مع الصوفية الهرائس ، ومع الخانقائيين الأثرائد . وطُردت في الليالي من المساجد ، وبُحّت في البراري ، ونهت في الصحارى ، وصدّقت في الورع زماناً ، وأكلت الحرام عياناً ، وصاحبت عبّاد جبل لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكت العبيد ، وحلّت على رأسى الزنبييل ، وأشرفت مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق ، وخدمت القضاة والكبراء ، وخطبتُ السلاطين والوزراء ، وصاحبت في الطرق الفُسّاق ، وبعثُ البضائع في الأسواق ، وبُحنتُ في الحبوس ، وأخذت على أنى جاسوس ، وعانيت حرب الروم في الشواني ” السفن الحربية “ وضرب النواقيس في الليالي .. وكُم نلتُ العز والرفعة ، ودُبر في قتلى غير مرة ، وحججت وجاورت ، وغزوت ورابطت .. وكُسيّت خيلع الملوك وأمروا لي بالصلات ، وعريت وافترقت مرات .. ورُميتُ بالبدع واتّهمت بالطمع . »

وكل هذه تجارب صادفته في رحلاته الجغرافية . وكثيراً ما يقف

الجغرافيون والرحالة في كتبهم ، فيصورون تصويراً تاماً ما يصادفهم من أحداث الحياة وما يلم بهم من خبائرها وغرائبها . ورحلنا ابن جُبَيْر وابن بَطْوَطة من أطراف الرحلات التي تشتمل على مادة بديعة في هذه الجوانب ، وخاصة أنهما ساقا رحلتيهما في شكل مذكرات يومية . ومن مصنفى الأندلس الذين ضمنوا مؤلفاتهم تجاربهم وخبائرتهم ابنُ حَزَمَ المتوفى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وربما كان أكبر عقلية إسلامية ظهرت هناك ، وله مؤلفات كثيرة في الفقه وأصوله وفي المال والنحل وفي التاريخ والسير وفي الفلسفة ومراتب العلوم والمنطق والأخلاق والطبائع . وقد نُشِرت له كتب ورسائل مختلفة يتداولها الناس ، وهو يصارحنا في كثير من جوانبها بخلفه وتجاربه ، غير سائر لتقيصة فيه ، وأهم كتاب حَمَلَه اعترافاته والبوح عن نفسه كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف » وهو يَجْعَلُ بالألفة المحبة ، وقد بحثها من جميع أطرافها . بحثها في أصولها وصفاتها وأعراضها ، ولم يطلق الكلام إطلاقاً ، بل عرضه على التجربة والخبرة في نفسه وسكان قرطبة لعصره من أمراء وعلماء وأدباء . ويهمننا ما اعترف به عن نفسه ، فن ذلك أننا نجد في أثناء حديثه عن الحب وأنه إذا أحب صفة في محبوب له لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها ، يقول : « دَعْنِي أَخْبِرُكَ أَنِّي أَحْبَبْتُ فِي صَبَايَ جَارِيَةً لِي شَقْرَاءَ الشَّعْرَاءِ فَاسْتَحْسَنْتُ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ سُودَاءَ الشَّعْرِ ، وَلَوْ أَنَّهُ عَلَى الشَّمْسِ أَوْ عَلَى صُورَةِ الْحَسَنِ نَفْسُهُ ، وَإِنِّي لِأَجِدُ هَذَا فِي أَصْلِ تَرْكِيبِي مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتُ لَا تَوَاتَيْنِي نَفْسِي عَلَى سِوَاهُ وَلَا تَحِبُّ غَيْرَهُ أَلْبَتَّةَ . وَهَذَا الْعَارِضُ بَعِينُهُ عَرْضُ لَأَنِّي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى إِلَى أَنْ وَافَاهُ أَجَلُهُ » ، ويقول : « لَقَدْ شَاهَدْتُ النِّسَاءَ وَعَلِمْتُ مِنْ أَسْرَارِهِنَّ مَا لَا يَكَادُ يَعْلَمُهُ غَيْرِي . لَأَنِّي رُبَيْتُ فِي حُجُورِهِنَّ ، وَنَشَأْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَلَمْ أَعْرِفْ غَيْرَهُنَّ ، وَلَا جَالَسْتُ الرِّجَالَ إِلَّا وَأَنَا فِي حَدِّ الشَّبَابِ . وَهِنَّ عَلَّمَنِي الْقُرْآنَ وَرَوَّيَنِي كَثِيراً مِنَ الْأَشْعَارِ وَدَرَّبَنِي فِي الْخَطِّ ، وَلَمْ يَكُنْ وَكَدَى ” غَرَضِي “ وَإِعْمَالُ ذَهْنِي مَذْأُولُ فَهْمِي وَأَنَا فِي سِنِّ الطُّفُولَةِ إِلَّا تَعْرِفُ أَسْبَابَهُنَّ وَالبَحْثُ عَنْ أَخْبَارِهِنَّ وَتَحْصِيلُ ذَلِكَ . وَأَنَا لَا أُنْسِي شَيْئاً مِمَّا أَرَاهُ مِنْهُنَّ ، وَأَصْلُ

ذلك غيرةً شديدة طبعت عليها وسوء ظن في جهن فطرت به ، فأشرفت من أسبابهن على غير قليل .

ولعل القارئ يعرف أن ابن حزم نشأ في بيت مترف ، فقد كان أبوه من وزراء الأمويين في قرطبة، ومن أجل ذلك نشأ هذه النشأة الطريفة في الحرم وبين النساء، وكن حيثئذ مثقفات، فرببتهن وقُسمنَ على تعليمه وقام هو على دراستهن ومعرفته طباعهن والوقوف على أخبارهن مما أتاح له فرصة واسعة لوصفهن في هذا الكتاب وإيراد طائفة من حكاياتهن هن ونساء قرطبة الأخباريات اللائي كن يتحدثن عن حبسهن . ونراه يقول في باب الوصل :

« ولقد جرّبتُ اللذات على تصرفها، وأدركت الحظوظ على اختلافها، فما للدنو من السلطان ولا لئمال المستفاد ولا للوجود بعد العدم، ولا للأوبة بعد طول الغيبة ، ولا للأمن بعد الخوف ولا للروح على المال، من الموقع في النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول المهجر حتى يتأجج الجوى ويتوقد لهيب الشوق وتتضرم نار الرجاء . وما أصناف النبات بعد غيب القَطَر ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السَّجَسَج ولا خريبر المياه المتخللة لأفانين التّوار ولا تأنق التصور البيض قد أحلقن بها الرياض الخضر بأحسن من وصل حبيب قد رُضيت أخلاقه وحدث غرائزه . » ويقول في باب المهجر :

« حضرت مقام المعتذرين بين أيدي السلاطين ، ومواقف التهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذلّ من موقف محب هَيْثَمَان، بين يدي محبوب غضبان، قد غمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين وكنت في الحالة الأولى أشد من الحديد وأنفذ من السيف لا أجيب إلى الدنيّة ولا أساعد على الخضوع ، وفي الثانية أذلّ من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتتم فرصة الخضوع لو نجّع . وأتحلّل بلساني .

وأغوص على دقائق المعاني ببياني ، وأفنئ القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الرضى .

ويتحدث عما يصيب المحبين من البين الذى يُعَدُّ شَجَى في القلب وغُصَّة في الحلق ، ويعرض لبين الموت الذى لا يرجى للمحبوب بعده إياب ، وهو القرحة التى لا تبرا والوجع الذى يتجدد ، يقول :

« دعنى أخبرك أنى أحدٌ من دُهي بهذه القادحة وتعجلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنت أشد الناس كلفاً وأعظمهم حُباً بجمارية لى . . كانت أمنية المئتمنى وغاية الحسن خُلُقاً وخُلُقاً وموافقة لى ، وكنت أبا عُدْرٍها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتنى بها الأقدار : واخترمتها الليالى ومَرُّ النهار ، وصارت ثالثة التراب والأحجار ، وسنّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن ، فلقد أقمت بعدها سبعة أشهر لا أتجرد عن ثيابى ولا تنفّر لى دمة على جمود عيني وقلة إسعادها ” بكائها“ . وعلى ذلك فوالله ما سلوت حتى الآن . . وما طاب لى عيش بعدها ، ولا نسيت ذكرها ، ولا أنست بسواها .

وما نزال ننتقل فى الكتاب بين اعترافات ابن حزم عن نفسه ، ومن ذلك ما يرويه عن حب عفيف له بفتاة تعلقها قلبه وهو لا يزال فى مَسِيعة الصبا ، فتمنعت عليه ، ولم يزد ذلك بها إلا تعلقاً وحُباً ، يقول :

« وإنى لأخبر عني أنى ألفت فى أيام صباى ألفة المحبة جارية نشأت فى دارنا ، وكانت فى ذلك الوقت بنت ستة عشر عاماً ، وكانت غاية فى حسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخفرتها ودمائتها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، بديعة البشر ، مُسَبِّلة السُّتُر ، فقيدة اللدام ، قليلة الكلام ، مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ، نقية من العيوب ، دائمة القطُوب ، حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ، مليحة الصدود ، رزينة العقود ، كثيرة الوقار ، مستلذة للتفار ، لا توجه الأراجى ”جمع رجاء“ نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرّس للأمل لديها .. على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً ، فجنحت إليها وأحببتها حُباً

مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع بأبلغ السعى فما وصلت من ذلك إلى شيء ألبته . . وإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقرها متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف حركة ، فأتعبد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه . فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت ككفي بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لأنهن كن عدداً كثيراً .

وهذه الاعترافات في كتاب طوق الحمامة تجعله طرفة حقيقية ، إذ قلما يعرف العرب في كتبهم بوقائعهم اليومية على هذا النحو الذي نجده عند ابن حزم . على أن هذا الكتاب ليس ترجمة شخصية كاملة لصاحبه ، فإنه إنما يسوق لنا فيه جانباً واحداً من حياته هو جانب حبسه ، وكثيراً ما يتحدث عن وقائع لبعض المحبين دون أن يسميهم ، وأكبر الظن أنه هو نفسه صاحب هذه الوقائع ، وخاصة أنه يسوق دائماً وراءها أشعاراً تصور حالة الحب أو المحبوب في الواقعة .

ولا نلتقى حتى عصر ابن حزم بترجمة شخصية كاملة لأديب ولا لعالم ، وربما وجدت تراجم لهم ، ولكنها لم تصل إلينا ، وأول ترجمة حفظها لنا الكتب ترجمة على بن زيد البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م وهو مؤرخ اشتهر بكتابين أحدهما في التاريخ العام ويسمى « مشارب التجارب » وهو ذيل على تاريخ ابن مسكويه ، والثاني في تاريخ الشعراء ويسمى « وشاح الدُمُيَّة » وهو ذيل على دُمُيَّة القَصَص للباخرزي ، وهي بدورها ذيل على كتاب اليتيمة للثعالبي .

وقد ترجم البيهقي لنفسه في كتابه « مشارب التجارب » وهو مفقود ، إلا أن ياقوت نقل لنا في كتابه « معجم الأدباء » هذه الترجمة . ونراه في مطلعها يرفع نسبه إلى الفاكه بن ثعلبة الأوسى ، ويستمر فيصّل به إلى آدم ! ويقول إنه ولد سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٥ م في قصبة السَّابَزَوَر من ناحية بَيْهَتَق ، وهي من ضواحي نَيْسَابُور

في خراسان، وقد أسلمه أبوه إلى الكتاب، ثم رحل به إلى قرية شِشْتِمَنْد من قرى تلك الناحية حيث كان له ضياع بها، وفيها أكمل دراسته النحوية واللغوية، وحفظ أشعار الحماسة والمعلقات والمنتبى ثم انتقل إلى نيسابور في سنة أربع عشرة وخمسة، وعكف على دروس العلماء بها من لغويين، ونحويين، ومحدثين، ومتكلمين. ويحصى لنا الكتب التي درسها في كل فن. وفي سنة سبع عشرة وخمسة مات أبوه فانتقل إلى مرو يتابع دراسته، وتزوج بها، وفي سنة ٥٢١ هـ عاد إلى نيسابور، وأصره إلى واليها ومشرف مملكها، وصار مشدوداً بوثاق الأهل والأولاد سنين. وتولى قضاء يهق سنة ٥٢٦ هـ ثم تركها إلى الرى وتعلق بدراسة الحساب والجبر والمقابلة. وتحول إلى بخارى في خراسان ثم إلى نيسابور ثم إلى سرخس وهو في أثناء ذلك يدرس على العلماء. ويتحول إلى يهق ثم إلى نيسابور حيث أخذ يدرس للطلاب في مساجدها، وظل على ذلك من سنة ٥٣٧ هـ إلى سنة ٥٤٩ هـ إذ ارتحل عنها إلى يهق لزيارة والدته، وقد مات في تلك السنة كما مات ابنه أحمد. وهنا نراه يذكر ثبوت تصانيفه، وقد بلغت نحو سبعين كتاباً، أكثرها في الشريعة وشروح الأشعار.

ومن الأدباء العلماء الذين ترجحوا لأنفسهم في القرن السادس الهجرى (الثاني عشر الميلادى) العماد الأصهبانى، وأودع ترجمته كتابه «البرق الشامى» وهو مفقود، غير أن ياقوت احتفظ لنا في معجمه بخلاصة هذه الترجمة. ومن ترجحوا أيضاً لأنفسهم في هذا القرن ابن الجوزى، ولم يفرد ترجمته برسالته، وإنما أتى بها عرضاً في رسالة سماها «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» وهي نصيحة موجهة إلى ابنه، ولكنه ضمنها غير قليل من أخباره ومؤلفاته، ولعل من الخير أن نقف عندها وعند صاحبها قليلاً.

ابن الجوزي

هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م وهو مؤرخ جليل، له في التاريخ كتاب المنتظم وهو مطبوع، وقد تناولت مؤلفاته أكثر علوم عصره، وشهرته إنما ترجع إلى أنه كان فقيهاً واعظاً، إذ كان له أثر بالغ في وعظ الناس بمسقط رأسه «بغداد» وإرشادهم، وقد رأى ابن جبير صاحب الرحلة المشهور مجلساً من مجالسه، فراعه روعةً شديدة حتى قال فيه:

«آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبليّة، والمختص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حكمة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمّة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على تفائس الدر. فأما نظمه فرضي الطباع، مهيّأ الانطباع، وأما نثره فيصعد بسحر البيان، ويعطل المثل بيقسّ وسحبان» ثم يصف موعظة له ويقول إنه بعد أن فرغ منها «أني برقائقي من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقاً، وذابت بها الأنفس احتراقاً، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته التشيع، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفرائس على المصباح.. فشاهدنا هولاً يملأ النفوس إنابة وندامة، ويذكرها هول يوم القيامة، فلو لم نركب ثبج البحر. ونعتسف مغازات القفر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الراجعة، والوجهة المفلحة الناجحة.. والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء لا إله سواه».

وابن الجوزي يبدأ رسالته «لفتة الكبد» بأنه وجد في ابنه أبي القاسم توانياً عن الجدل في طلب العلم فكتب له هذه الرسالة يحثه بها، ويحركه على سلوك طريقه في

كسب المعرفة ، وقد قسمها فصولاً ، تحدث في الفصل الأول عن العقل وأنه يهدى صاحبه إلى أنه مكلف أمام ربه بفرائض ينبغي أن يؤديها ، ويقفه على فضائل ينبغي أن يتحلى بها ، وليست الفضائل الكاملة إلا الجمع بين العلم والعمل . ودعاه في الفصل الثاني إلى دراسة الفقه حتى يعرف ما يجب عليه من الوضوء والصلاة والزكاة والحج ، وحتى يندفع بعد ذلك في الترقى إلى الفضائل مستعيناً بربه وطاعته لاجتناً إلى توقيفه ورعايته . وفي الفصل الثالث يسوق له من أحواله هو ما قد يرشده في دنياه ، وهنا يفيض في الترجمة لنفسه ، يقول :

« وإنى لأذكر لك بعض أحوالى لعلك تنظر إلى اجتهدى ، وتسأل الموفق لى ، فإن أكثر الإنعام علىّ لم يكن بكسبى ، وإنما هو من تدبير اللطيف بى ، فإنى أذكر نفسى ولى همة عالية ، وأنا فى المكتب ابن ست سنين ، وأنا قرين الصبيان الكبار ، قد رزقت عقلاً وافرأ فى الصغرى زيد على عقل الشيوخ ، فما أذكر أنى لعبت فى طريق مع الصبيان قط ، ولا ضحككت ضحكاً خارجاً ، حتى إنى كنت ، ولى سبع سنين أو نحوها ، أحضر رجة الجامع ، فلا أتخير حلقة مشعبد ، بل أطلب المحدث ، فيتحدث بالسير ، فأحفظ جميع ماأسمعه ، وأذهب إلى البيت فأكتبه . ولقد وفق لى شيخنا أبو الفضل بن ناصر رحمه الله ، وكان يحملنى إلى الشيوخ ، فأسمعى المسند "مسند ابن حنبل" وغيره من الكتب الكبار وأنا لا أعلم ما يراد منى ، وضبط لى مسموعاتى إلى أن بسأخنت ، فناولنى ثببها ، ولازمته إلى أن توفى رحمه الله ، فنلت به معرفة الحديث والنقل . ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا فى زمن الصغرى أخذ جزءاً ، وأقعد حجرة "زاحية" من الناس إلى جانب الرقة ، فأتشأغل بالعلم . ثم أهتم الزهد فسررت الصوم ، وتشأغل بالثقل من الطعام ، وألزمت نفسى الصبر ، فاستمرت . وشمرت ولازمت "العلماء" وعالجت السهر ، ولم أقنع بفن من العلوم ، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث ، وأتبع الزهاد . ثم قرأت اللغة ولم أترك أحداً من يروى ويعظ ولا غربياً يقدم إلا وأحضره ، وأتخير الفضائل .

وكنّت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حقّ الحق . فأحسن " الله " تديري وتربيتي ، وأجراني على ما هو الأصلح لي ، ودفع غني الأعداء والحساد ومن يكيّدني ، وهياً لي أسباب العلم ، وبعث إليّ الكتب من حيث لا أحسب ، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخطّ وجودة التصنيف ، ولم يعوزني شيئاً من الدنيا ، بل ساق إليّ من الرزق مقدار الكفاية وأزيد ، ووضع لي من القبول في قلوب الخلق فوق الحد ، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل النعمة . ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف .. ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث ، فينقطع نفسي من العبد و ثلاثاً سبق .. وما أنت قد ترى ما آلت حالي إليه ، وأنا أجمعه لك في كلمة واحدة ، وهي قوله تعالى " واتقوا الله ويعلمكم الله " فانتبه يا بني لنفسك واندم على ما مضى من تفريطك »

وتتعاقب النصائح وفي أثنائها يسوق ابن الجوزي أخباره ، فمن ذلك قوله : « اعلم يا بني أن أبي كان موسراً وخلّف ألوفاً من المال ، فلما بلغت دفعوا لي عشرين ديناراً ودارين ، وقالوا لي : هذه التركة كلها ، فأخذت اللدنانير واشتريت بها كتباً من كتب العلم ، وبعث الدارين وأنفقت ثمنهما في طلب العلم ، ولم يبق لي شيء من المال . وما ذلّ أبوك قط ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئاً ، وأموره تجري على السداد " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب " » .

وعلى هذا النحو نطلع في هذه الرسالة على نشأة ابن الجوزي ونعرف مدى إكبابه على الدرس والتحصيل وما أخذ به نفسه منذ صغره بالفضيلة والسيرة الزكية ، يشهد ما عند الله ، حتى أصبح واعظاً ، وأصبح لوعظه تأثيره في النفوس لأنه يصدر فيه عن عقيدة صحيحة . وليس هذا كل ما نجده في الرسالة ، فنحن نجد فيها أيضاً بعض مصنفاته ومؤلفاته إذ يقول :

« وقد علمت يا بني أني قد صنفت مائة كتاب ، فمنها التفسير الكبير

عشرون مجلداً ، وتهذيب المسند عشرون مجلداً ، وباقى الكتب من كبار وصغار تكون خمسة مجلدات ومجلدين وثلاثة وأربعة وأقل وأكثر . كفيته هذه التصانيف عن استعارة الكتب وجمع الهمم في التأليف ، فعليك بالحفظ ، وإنما الحفظ رأس المال ، والتصرف ربح ، واصلق في الحالين في الالتجاء إلى الحق سبحانه؛ فراع حدوده ، قال الله تعالى : " إن تنصروا الله ينصركم " " فاذكروني أذكركم " " وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم " . . . عليك بكتاب منهاج المريدين فإنه يعلمك السلوك فاجعله جليساك ومعلمك ، وتلمس كتاب صيد الخاطر فإنه يقع بواقعات تصلح لك أمر دينك ودنياك ، وتحفظ كتاب جنة النظر ، فإنه يكنى في تلقيح فهمك للفقهاء ، ومتى تشاغل بكتاب الخدائق أطلعك على جمهور الحديث ، وإذا التفت إلى كتاب الكشف أبان لك عن مستور ما في الصحيحين " صحيح البخاري ومسلم " من الحديث ، ولا تتشاغلن بكتب التفسير التي صنفها الأعاجم ، وما ترك الغني وزاد المسير لك حاجة في شيء من التفسير ، وأما ما جمعته لك من كتب الوعظ فلا حاجة لك بعدها إلى زيادة أصلا .

وبذلك يضيف ابن الجوزي إلى تعريفنا بنشأته وتربيته وسيرته تعريفنا ببعض كتبه في التفسير والحديث والفقهاء والوعظ ، وقد نُشر له في عصرنا غير كتاب ، وهو حقاً أحد العلماء الأفاضل الذين أنجبهم بغداد في العصر العباسي الثاني .

ونمضي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فتكثر تراجم الأدباء والعلماء ، إذ تصبح الترجمة الشخصية سنة متبعة بين كثيرين منهم ، وخاصة من ألقوا في كتب التراجم العامة ، مثل ابن سعيد صاحب كتاب « المغرب في حلى المغرب » فقد ضمن هذا الكتاب ترجمته وترجمة أبيه وحده وطائفة من أسرته ، وربما كان خير من أفرد لنفسه ترجمة في هذا القرن أبا شامة .

أبو شامة المقدسى الدمشقى

هو شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وهو محدث ومؤرخ كبير ، اشتهر فى عصرنا بكتابه « الروضتين فى تاريخ الدولتين » دولة نور الدين ودولة صلاح الدين الأيوبي ، وهو خير من أروخ لهاتين الدولتين ، وأتبع هذا التاريخ بذيل له ترجم فيه لرجال القرنين السادس والسابع للهجرة ، وحين تحدث عن سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م ومن توفوا فيها ذكر أنه ولد فى تلك السنة . ولم يكتف بذلك ، بل ترجم لنفسه ترجمة ضافية ذكر فى أولها أنه عُرِفَ بأبى شامة لأنه كان به فعلا شامة كبيرة فوق حاجبه الأيسر ، وقال إنه ولد بدمشق بالفواخير بدمشق ، وأصل جده أبى بكر من بيت المقدس . وأفاض فى الحديث عن آبائه وأعمامه ، ثم أخذ يتحدث عن نفسه بضمير الغائب ، فقال إنه بدأ يحفظ القرآن الكريم ، ثم أخذ فى معرفة القراءات السبع والفقه والعربية والحديث وأبام الناس ، حج مع والده سنة إحدى وعشرين وستمائة ، ثم حج فى السنة التى بعدها أيضاً ، ثم سافر إلى بيت المقدس ورحل منه إلى الديار المصرية سنة ست وعشرين وأخذ عن شيخها فى مصر والقاهرة ودمياط والإسكندرية . وعاد إلى دمشق عاكفاً على الاشتغال بالعلم وتحصيله والتأليف فيه .

ويقول إنه كان فى صغره يرزق إلى منزلة العالم الكبير أبى منصور بن عساكر الدمشقى ويطمح إلى أن تصبح له رتبته فى العلم ونشره وانتفاع الناس بدروسه وفتاويه ، فبلغه الله فى ذلك فوق ما تمناه . ولكى يقفنا على ما وصل إليه من حُظوة فى التقوى والعلم

وعند الناس يسوق إلينا طائفة من الأحلام والمنامات رؤيت له ، أو رآها هو لنفسه ، يقول :

« ورؤيت له منامات حسنة كانت مبشرات له بما وصل إليه من العلم وما يرجوه من الخير ، منها أن والدته ، رحمة الله ، أخبرته ، وهو إذ ذاك صغير يتردد إلى المكتب ، وأبوه رحمه الله يعجب من حبه المكتب وحرصه على القراءة على خلاف المعروف من عادة الصبيان ، فقالت الوالدة : لا تعجب فإنى لما كنت حاملا به رأيت فى المنام كأتى فى أعلى مكان من المثلثة عند هلالها ، وأنا أؤذن ، فقصصتها على عابر " مفسر للأحلام " فقال : تلدين ذكراً ينتشر ذكره فى الأرض بالعلم والخير . ورأى هو فى صفر سنة أربع وعشرين وستائة كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قد أقبل إلى الشام متجداً لأهله على الفرنج ، خلطهم الله ، وكان له به خصوصية من إفضاء أمره إليه والتحدث معه فى أمور المسلمين وهو يمشى إلى جانبه ملاصقاً منكبه ، حتى كان الناس يسألونه عنه وعما يريد أن يفعل وهو يخبرهم ، وكأنه واسطة بينه وبين الناس . وفى هذه السنة رأى أيضاً كأنه والفقير عبد العزيز بن عبد السلام ، سلمه الله ، داخل باب الرحمة بالبيت المقدس ، وقد أراد فتحه ، وثم من يمنع من فتحه ويدفعه لينغلق ، فما زالوا يعالجان الأمر ، حتى فتحا مصراعيه فتحاً تاماً ، بحيث أسند كل مصراع إلى الحائط الذى خلفه . . ورآه المهتار هلال بن مازن الحرانى متقلداً هيكلا وهو يقول : انظروا فلاناً كيف تقلد كلام الله . ورأت امرأة كبيرة كان جماعة صالحين اجتمعوا بمسجد قرية بيت سوا ، وهى قرية من قرى غوطة دمشق ، وكانهم سئلوا ما شأنهم قالوا ننتظر النبى صلى الله عليه وسلم يصلى بنا ، قالت وحضر نعى مصنف هذا الكتاب ١١ ورأى الصلاح الصوفى أول ليلة من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسين وستائة كان مصنف الكتاب متوجه إلى الحج ومعه من الزاد جميع ما يحتاج إليه [وهو متزود] تزوداً تاماً يعجب منه الراى . ورأى حسن الحجازى فى شهر رمضان سنة سبع وخمسين وستائة كان قائلاً فى عالم الغيب

لا يراه بل يسمع صوته يقول : الشيخ أبو شامة وليّ هذا الوقت . . ومن ذلك منامات حسنة رآها له أخوه الشيخ برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ، وهو أسن منه بنحو تسع سنين ، وكان من الصالحين رأى والدهما رحمه الله يقول له : عليك بالعلم ، انظر إلى منزلة أخيك ، فنظر ، فإذا هو في رأس جبل ، والوالد والرأى يمشيان في أسفله . ورأى في صفر سنة سبع وخمسين وسبعمائة كأن مصنف الكتاب متمسك بجبل قد دُلِّيَ من السماء وهو مرتفع فيه ، فسأل إنساناً عن ذلك في المنام ، فانكشف لهما البيت المقدس والمسجد الأقصى ، فقال له ذلك الإنسان : من بَسَنَى هذا المسجد ؟ فقال : سليمان بن داود ، فقال : أُعْطِيَ أخوك مثل ما أُعْطِيَ سليمان ، فقال له : كيف ذلك ؟ فقال : أليس سليمان أَوْقَى ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ؟ أليس أُعْطِيَ كذا وكذا وعدد أنواع ما أَوْقَى ، فقال : بلى ، قال : وكذا أخوك أَوْقَى أنواعاً من العلم كثيرة . . وراه الشرف الصرخلى فوق سطح بيت منعزل وهو يؤذن ، ثم بعد الأذان قرأ ” واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب “ . ورأى أيضاً كأن النيامة قد قامت وصنف الكتاب راكب على حمار وهو مسرع ، فقيل له في ذلك ، فقال : أطلب النبي صلى الله عليه وسلم على الحوض . ورأى الشرف بن الرئيس أيضاً القيامة ووصف من أهوالها ، قال : ورأيت فلاناً يعنى صاحب هذا الكتاب ، فسألته عن حاله ، فقلت له : ماذا لقيت ؟ قال : لقيت خيراً . وإنما سطرت هذه المنامات وغيرها تحذيراً بنعم الله تعالى كما أمر سبحانه في قوله تعالى ” وأما بنعمة ربك فحدث “ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : ” لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له “ .

وهذه الرؤى في جملتها تدل ، إن صحّت على صلاح أبي شامة وتقواه وأنه عُرِفَ بذلك في معاصريه ، حتى كانت تقرن آراؤهم فيه برؤاهم ، أو يقرن شعورهم بلا شعورهم . ويذكر شيوخه وأساتذته الذين تلقى عنهم العلم ، وخاصة علم الشريعة والحديث ، في إجمال ، ثم يذكر مصنفاته ، وهى كثيرة ، منها ما

يتناول بعض مسائل الشريعة والقراءات والتفسير والحديث ، ومنها ما يتناول النحو واللغة ، ومنها ما يتناول التاريخ مثل كتاب الروضتين . ونجد بين كنبه مختصرات كثيرة مثل مختصر تاريخ بغداد . وفي هذا ما يدل على أننا قد وصلنا إلى عصور الجُمود في الفكر العربي ، فقلما كان هناك من جديد ، بل أصبحت صناعة القوم تكرار الماضي . يوجزونه إلى أبعد حدود الإيجاز ، ثم يعودون فيسقطونه بالشروح والحواشي ، وهم في هذا وذاك قلما يضيفون جديدا وإنما يعقدون ، ويحاولون أن يفكوا ما عقدوه . ونجد بين مؤلفاته أرجوزة في الفقه ، وهي رمز لما شاع في هذا العصر ومن قبله وبعده عند علماء العرب من نظم العلوم تسهيلا للحفظ ، وهو نظم يوضع في عبارات موجزة شديدة الإيجاز ، ثم يشرحونها على طريقته في شرح المتن النثرية . ولم ينظم في الفقه فقط ، بل نظم أيضاً قواعد علم العروض والقوافي كما نظم مفصل الزخشرى في النحو ، ونظم شيئاً من متشابه القرآن الكريم . وكل هذا النظم تلخيص واختصار ، وهو تحول بالشعر عن غايته من التعبير عن المعاني الوجدانية إلى معان علمية خالصة ، لم يوضع لها ، وإنما وُضع لها النثر الواضح ، حتى تفهم . وكل ذلك يدل على أن القوم عُسُوا بالتراث القديم مما جعلهم يهتمون بتلخيص أنواع الثقافة الماضية ، تارة بالنثر ، وتارة بالشعر ، وقلما أضافوا جديداً وخاصة في الأدب والشعر .

٤

كثرة التراجم العلمية والأدبية

لا نكاد نغضى بعد القرن السابع الهجري حتى نكثر التراجم الأدبية والعلمية ، وخاصة عند العلماء الذين يؤلفون كتب الطبقات ، فقد أصبح سنة فيما بينهم أن يرجعوا لأنفسهم بجانب ترجاتهم لغيرهم ، ومن أشهر من ترجعوا لأنفسهم على هذا

التحو محمد بن محمد الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م ومحمد بن عبدالرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م. أما الجزرى فترجم لنفسه فى كتابه «غاية النهاية فى طبقات القراء» وهو يستهل الترجمة بأنه ولد فى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق، وأتم حفظ القرآن الكريم سنة أربع وستين، ثم أخذ فى سماع الحديث النبوى والقراءات وعنى بها عناية تامة، حتى أتقنها، ثم حج فى سنة ثمان وستين وسمع فى المدينة من شيوخها ولم يعد إلى دمشق، بل رحل إلى الديار المصرية فى سنة تسع، حيث واصل دراسته للقراءات السبع وما فوقها، ثم عاد إلى دمشق، ولكن سرعان ما تركها فى رحلة ثانية، يأخذ فيها عن كبار الشيوخ فى عصره، وعاد إلى الديار المصرية، فقرأ بها الأصول والمعانى والبيان على الشيخ سعد الله القزوينى، وألم بالإسكندرية، وسمع من علمائها. وأخيراً أذن له بالفتوى وجلس للإقراء فى الجامع الأموى بدمشق وقصده الطلاب من كل فجٍّ. وولى قضاء الشام سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، ودخل فى آسيا الصغرى يقرئ الأمراء وغيرهم. ونزل ببلاد ما وراء النهر فى خراسان وحل بغير مدينة، تارة يقرئ الناس، وتارة يقضى بينهم، ثم توجه إلى البصرة فبلاد العرب، وطلاب القراءات ينسالون عليه انسيالا، ويقول إنه ألف فى نَجْد «الدرة فى قراءات الثلاثة» وجاور فى المدينة ومكة سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وفى إقامته بالمدينة ألف فى القراءات كتاب «نشر القراءات العشر» فى مجلدين ومختصره «التقريب» و«تجوير التيسير فى القراءات العشر» ويذكر أنه ألف قبل ذلك «شرح المصابيح»، كما ألف غير كتاب فى التفسير والحديث والفقه والعربية. ولا ينسى أن يتوه بما نظمه من المتون فى العلوم المختلفة، ومَرَّ بنا أن ذلك كان إحدى آفات العلم العربى فى أواخر العصور الوسطى، إذ تحول العلماء غالباً لا إلى الابتكار فى التأليف، وإنما إلى إعادة الماضى وتكراره بأسلوب جديد هو أسلوب الشعر، وهو أسلوب لم يُعَدِّ للعلم والثقافة، وقد جنى ذلك على الشعر الغنائى نفسه، إذ أصبح الشعراء كالعلماء يلورون دوران

معجون في معان وصيغ محفوظة ، يبدئون فيها ويعبدون ، وقلما جاءوا بفكرة أو معنى جديد .

أما السخاوي فترجم لنفسه في كتابه « الضوء الالامع في رجال القرن التاسع الهجري » ترجمة مسهبه ، ذكر في أولها أنه ولد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، وأهم به أبوه منذ نعومة أظفاره ، فأخذ يختلف به إلى شيوخ عصره في القاهرة يقرأ عليهم القرآن الكريم وعلومه والنحو والعروض والحديث ، وهو يفصل الكلام في ذلك تفصيلاً واسعاً . وتعلم على الشيوخ كذلك الفقه والفرائض والتفسير ، ويفيض في سماعه للحديث وعلومه ، حتى صار أكثر أهل العصر مسموعاً ورواية ، فقد أخذ عن أكثر من أربعمائة نفس ، ورحل إلى دمياط فسمع بها من بعض المسندين . وحج وسمع بمكة من كثيرين ، كما أخذ عن غير واحد بالمدينة ، ورجع إلى القاهرة ، فأقام بهاملاً لزمًا للسمع والقراءة والتخريج والاستفادة من الشيوخ ، وتنقل في البلاد المصرية يأخذ عن العلماء ويفيد ، محصلاً للكتب المختلفة . ثم رحل إلى حلب ، ويعدُّ المدن التي مر بها ، ومن سمع منهم وأجازوه حتى اجتمع له من المرويات بالسمع والقراءة ما يفوق الوصف ، يأخذ في سرد ذلك سرداً مفصلاً ، ويذكر لنا بعض مجالسه ، ويقول إنه توجه للحج مع أولاده في سنة سبعين ، وهناك حدث بأشياء من تصانيفه وغيرها وأملى مجالس (محاضرات) بالمسجد الحرام ، ولما رجع إلى القاهرة أخذ في إملاء بعض تخريجاته وحج في سنة خمس وثمانين ، وجاور سنة ست ثم سنة سبع ، وعاد إلى الحج والمجاورة مراراً ، وحين رجوعه إلى مصر كان يأخذ عنه كثير من الخلائق .

ويذكر أنه شرع في التصنيف والتخريج قبل الخمسين ، ويعرض علينا بعض تخريجاته لكتب الحديث ، ثم يسرد مصنفاته فيه وفي علومه وفي التاريخ وفي مسائل متنوعة من مسائل الشريعة ، ويذكر لنا من أثروا عليه من كبار العلماء وخاصة الحديثين ، ويسوق ثنائهم وشهادتهم له ، كما يسوق بعض ما نظم فيه من مدائح ينو أصحابها بعلمه وفضله وحسن وايتة للحديث حتى غدا عكساً فيه ،

وتولى مشيخة تدريسه بمدارسه الكبيرة في القاهرة ، وينتهى من ترجمته بقوله :
« وهذا كله وهو عارف بنفسه معترف بالتقصير في يومه وأمه ، خير بعبوبه . .
لكنه أكثر المهذبان ، طمعاً في صفح الإخوان » .

وأما السيوطي فإنه ترجم لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة في أخبار مصر
والقاهرة » وقال في أول ترجمته إنه يقتل في الترجمة لنفسه بالحدثن والمؤرخين قبله
مثل عبد الغافر الفارسي في كتابه تاريخ نيسابور ولسان الدين بن الخطيب في
كتاب تاريخ غرناطة وابن حجر في كتابه قضاة مصر . ويذكر أن جده الأعلى
كان من المتصوفة وشايخ الطرق : ومن خلقوه من أجداده كانوا من أهل
الرجاحة والرياسة ، أما أبوه فكان فقيهاً على مذهب الشافعي ، ويذكر أنه ولد
بالقاهرة سنة ٨٤٩ / ١٤٤٥ م . ولم يلبث أن توفي والده ، فنشأ يتيماً ، وعلى عادة
أترابه حفظ القرآن ، ثم أخذ في دراسة النحو والفقه والفرائض على كبار الأساتذة
والشيوخ في عصره ، واختلف إلى أصحاب التفسير والحديث والأصول ، ويذكر
بعض من أثنوا عليه من شيوخه .

والحق أن السيوطي يعد أحد العلماء الأفذاذ الذين ظهوروا بمصر في العصور
الوسطى ، وقد ترك كثيراً من المؤلفات ، حتى لتشبه في مجموعها دائرة معارف
كبيرة تضم العلوم الشرعية واللسانية والأدبية والتاريخية ، وتحدث عن ذلك فقال :
« شرعت في التصنيف في سنة ست وستين ، وبلغت مؤلفاتي إلى الآن
ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه ، وسافرت بحمد الله تعالى إلى بلاد
الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور . . وأتيت من مسهل سنة إحدى
وسبعين ، وعقدت إملاء الحديث من مسهل سنة اثنتين وسبعين ، ورزقت التبحر
في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبدیع ، على طريقة
العرب والبلغاء لا على طريقة الأعاجم وأهل الفلسفة » .

ويقصد السيوطي بطريقة العرب والبلغاء في علوم البلاغة أنه كان فيها لا يعني
بنا وصلت إليه هذه العلوم من تعقيد شديد عند متفلسفة العجم أمثال الفروني

والسيد الجرجاني ومن إليهما ممن أحالوا مسائلها البسيطة إلى مشاكل عقلية على نحو ما هو معروف عند القزويني في تلخيصه ومن شرحوه من أمثال الجرجاني والفتازاني . ولم يكن السيوطي في ذلك شاذاً على أدياء مصر وعلمائها ، بل كانوا جميعاً في عصره يلتهبون من العناية بالنصوص الأدبية دون الوقوف عند التفتازاني ومن جرى في إثره ، وهو يسمى هذا المنهج طريقة العرب والبلغاء.

وأخذ بعد ذلك يسرد مؤلفاته في التفسير ومسائله وعلى رأسها كتابه «الإتقان» ثم في الحديث وقد أكثر فيه من الشروح على أمهاته القديمة ، ثم في التاريخ ، وقد كتب كثيراً في طبقات العلماء المختلفين ، وكتابه «بغية الوعاة في طبقات النحاة» من أشهر الكتب التي تعنى بتاريخ هذه الطائفة من العلماء ، وله في النحو «معالم المومنين» ويعتد موسوعة كبيرة في هذا العلم ، إذ حشد فيه آراء العلماء المختلفين منذ الخليل إلى عصره في العراق وغير العراق وكتابه «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» الذي ذكر فيه ترجمته من خير الكتب التاريخية . وقد ألف غير كتاب في الأصول وعلوم البلاغة . وألف بجانب ذلك ديوان خطب ومجموعة مقامات ، ونظم في غير فن ، وهو في الحقيقة أعجوبة من أعاجيب مصر في أواخر عصرها المملوكي .

وهؤلاء العلماء الثلاثة ترجموا لأنفسهم في كتب ترجموا فيها لغيرهم ، وكثر في عصورهم أن يفرد العلماء لأنفسهم تراجم في كتيبات ورسائل مستقلة ، ومن وصلتنا ترجمتهم على هذا النحو حافظ الشام ومؤرخه في القرن العاشر الهجري محمد بن علي بن طولون الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ٩٥٣ هـ / ١٥٤٦ م فإنه ترجم لنفسه في كتيب سماه «الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون» وهو يذكر في أوله أنه ولد بصالحية دمشق في سفح قاسيون سنة ثمانين وثمانمائة ، وتوفيت والدته وهو في المهد وكانت رومية تحسن لسان الأروام ، ونشأ في حجر والده وعمه مفتي دار العدل ، واختلف إلى الكتاب يحفظ القرآن الكريم ، ثم انتقل إلى حلقات الشيوخ يأخذ عنهم الحديث والنحو حتى مهر فيهما ، ويحصى لنا

الكتب التي قرأها عليهم في هذين الفنين وفي الفقه الحنفي والقراءات وعلم الأصول والتفسير والمنطق والطب وعلوم البلاغة .

وكان النظام المتبع في حمل العلوم أن تعطى فيها إجازات ، يشهد فيها الأستاذ لتلميذه بحسن تلقيه وأنه حرى أن يروى العلم عنه ، وهو يسرد علينا كثيراً من هذه الإجازات التي منحها له أساتذة عصره في الشام وغير الشام فقد رحل إلى مصر وأخذ عن السيوطي أكثر كتبه في الحديث والنحو وغيرهما ، يقول :

« ومن أراد الاطلاع على معرفة ما تيسر لي نوعُ إلمام به من أنواع العلوم فعليه بكتابي المسمى بالؤلؤ المنظوم ، فإنني ذكرت في كل واحد منها ما تيسر لي من رسمه وموضوعه وغايته ، وعمن أخذته وماذا كتابي فيه ، وما لي فيه من تأليف إلى حين وضعي لهذا المؤلف .. وجموع ما ذكرت فيه من العلوم ثمانية وثلاثون علماً .. وفي ضمنها علوم آخرَ تزيد مع هذه على اثنين وسبعين علماً . وقد كتب لي كل واحد من هؤلاء الأشياخ ممن اشتغلت عليهم في هذه العلوم إجازة وبعضهم إجازتين ، وبعضهم ثلاثاً ، جمعها في مجلدة .. خلا بعض الإجازات كتبت على الكتب المقررة . ويذكر لنا صوراً من الإجازات التي منحها له شيوخه ، يقول :

« فنها ما كتبه لي العلامة الشمس بن رمضان حين قرأت عليه ألفية علوم الحديث وتلخيص المفتاح في علم المعاني ومضافيه ” البيان والبديع “ : قرأ عليَّ الشيخ الإمام الفاضل البارِع المتقن المحصل الذكي الألعى اللوذعي محمد ابن طولون — جعله الله من عباده الصالحين ، ورزقه العلم ، وجعله من العلماء العاملين — جميع هذا الكتاب وهو تلخيص المفتاح في كلنا ، وكلنا أيضاً قرأ الأرجوزة المنسوبة للعلامة الزين العراقي في علم الأثر ” الحديث “ قراءة بحث وإتقان وتحرير وإمعان ، وورَّخَها في مجالس آخرها في ذي القعدة سنة سبع وتسعين وثمانمائة بالمدرسة القجماسية داخل دمشق المحروسة بحضرة جماعة من الطلبة ، وقد أجزته بمنأكرته ماقراه ممن التمس منه ، مع ما يجوز لي روايته بشرطه . »

وكان لا يقعد لإملاء الحديث النبوى خاصة إلا من شهد له شيخ بمثل هذه الإجازة حيطة وحذراً حتى لا يرويه من لا يحسنه أو من كان مجرّحاً . ومن أراد الاتساع فى معرفة طرق رواية الحديث فعليه بالكتب الخاصة بمصطلحه ، فإنه واجد لروايته شروطاً وقواعد تشدد فيها القوم تشدداً واسعاً ، حتى غدت علماً معقداً من علومهم .

ويحدثنا ابن طولون بعد ذلك عن الوظائف التى تولّاها ، وهى تلور على تدريس القراءات والحديث والفقه فى مدارس ومساجد مختلفة ، وعُهد إليه أحياناً بخدمة الكتب والقيام عليها كما عهد إليه بالنظر على بعض الخوانق والحبوس أو الأوقاف ، وتولى غير مشيخة ، وكان يتقاضى فى بعض وظائفه المتعددة خمسة عشر عثمانياً . وينتقل من بيان ذلك إلى سرد مؤلفاته الكثيرة فى كل فن ، ورتبها على حروف المعجم ، وهى تستغرق من الكتيب نحو عشرين صحيفة ، تلاها بما قيل فى ملحه وفضله وعلمه من شعر ونثر .

الفصل الثالث

تراجم صوفية

١

المتصوفة يصفون سلوكهم وتجارهم

رافقت الإسلام منذ نشأته نزعة زهد ، أخلت تنمو وتتطور وتدخل فيها عناصر أجنبية مختلفة ، انتهت إلى ظهور طبقة المتصوفة ، وهي طبقة تجردت تجرداً كاملاً عن الدنيا ومتاعها ونبلت كل طياتها ومباهجها مؤثرة الفقر والمسغبة والثياب الخشن كالصوف ونحوه ، سامية بأنفسها إلى الكائن الأوحى والملاذ الأعلى ، متعطشة إلى نوره الذى يفوضه على الوجود ، منشوقة إلى الاتحاد به والفناء فيه .

وقد أخذوا يضعون لهم منذ أوائل العصر العباسى طقوساً وعادات ، يسمونها أحوالاً ومقامات ، يحاولون بها التخلص من كيانهم المادى وحُجب أجسادهم الكثيفة ، حتى يتهيأوا لانكشاف الحقيقة المتوحدة لهم ، وحتى تغمرهم أنوارها ، وتشرق عليهم أضواؤها الأزلية ، بل حتى يفنوا فيها فناء مطلقاً .

وهو فناء ترافقه المحبة وما يسمى بالعشق الإلهى ، وهي محبة من نوع سام ، تتعطل فيها كل الإرادات والضرورات المادية ، إذ يذوب الحب فى المحبوب ، ولا يكون له وجود إلا فيه . ويتخيلون لذة المحبة كأساً ، لا يشرب منها الصوفى وتحتويه حتى يغيب عن وجوده الظاهر ، وينتشى بفنائه فى وجود باطن مع الكائن الإلهى الأعظم .

ولسنا بصدد البحث في التصوف ولا في نظريات المتصوفة وما يتفق منها مع روح الإسلام وما لا يتفق ، إنما نهينا تراجمهم الشخصية ، وما خلفوا منها للأجيال التي تلتهم . ومعروف أن لهم كتباً مختلفة عنيت بالترجمة للبارزين منهم على مرّ العصور .

ومن أهم ما يميز هذه التراجم أنها تصور لنا سلوكهم وتضع تحت أعيننا كثيراً من تجاربهم التي تعد في جوانب منها غريبة وخاصة حين يتحدثون عن كراماتهم ومكاشفاتهم وما عرض لهم من الأحوال . وكثير مما يروى عنهم في يقطعتهم يشبه الرؤى والأحلام ، ومن غير شك يتيح ذلك ميداناً فسيحاً لعلم النفس الحديث وأبحاثه ودراساته . وفي الوقت نفسه تتحول تراجمهم إلى تراجم شخصية في أكثر جوانبها ، لأن من كتبوها قصروها ، أو كادوا ، على كلامهم في التصوف وما ينصحبون به في معرفة الطريق ، وقد يعرضون بعض تجاربهم الحقيقية . وهم في ذلك إنما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ، ففيه الإيهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الحالم إلى أشعة الذات العلية .

ولعل ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محبة إلى النفس . لأننا نجد فيها تجارب تأخذ بالآبائنا ، ومجاهدات تشبه مجاهدات الفرائض حين يحوم على النار ، يريد أن يسقط فيها . وهي مجاهدات وتجارب بدأت منذ رابعة العدوية ومعاصرها إبراهيم بن أدهم ، وإليها تنسب هذه الأبيات في العشق الإلهي :

أحبك حُبَّين حُبُّ الهوى وحبُّ لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحُجْبَ حتى أراكا

وكان إبراهيم بن أدهم أميراً من أمراء بلخ ، فخرج يوماً للصيد . فأثار ثعلباً أو أرنباً : فسمع هاتفاً يهتف به : يا إبراهيم ألهذا خلقت ؟ أم بهذا أمرت ؟ ثم

هتف به : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت ، فنزل عن دابته ، وصادف راعياً ، فأخذ ثوبه وكان من صوف ، وأعطاه ثوبه وفرسه وما معه ، وساح في الأرض تائباً مستغفراً مؤثراً ما عند ربه . ويقال إن حرّس قصره سمعوا ليلة جلبة فوق سطحه ، وذهبوا لتبين الأمر ، فوجدوا قوماً يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة . فاقترحهم إلى إبراهيم ولما سألهم هل حدث أن بحث شخص عن إبله المفقودة فوق أحد السطوح؟ أجابوا إننا نقتدى بك لأنك تبحث عن ربك وأنت جالس على كرسي إمارتك . فخلع ثوب الإمارة ورمى به بعيداً وفرّ عن القصر ودخل البادية وظل سائحاً حتى وصل إلى مكة ودخل الشام ومات بها سنة ١٦١هـ / ٧٧٧ م . وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين . ويقولون إنه كان يحفظ كرمًا فر به جندي ، فقال : أعطني من هذا العنب ، فقال : ما أمرني بذلك صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه : فطأطأ له رأسه ، وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله ، فأعجز الجندي ومضى . وما يروونه عن سلوكه وسيرته أنه كان يقول : لا ينال شخص درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات ، أولاً يغلق باب النعمة ، ويفتح باب الشدة ، والثانية يغلق باب العز ويفتح باب الدل ، والثالثة يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد والرابعة يغلق باب النوم ويفتح باب السهر ، والخامسة يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر ، والسادسة يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت . وهي أبواب اجتازها هو نفسه ليتخلص من متاع الدنيا ، ويحصل على رضوان ربه ، ويصبح من أهل المعرفة المتصوفة الأصفياء .

وتتناقل كتب المتصوفة أقوالاً كثيرة في التصوف وأحواله ومقاماته لأبي سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٣٠ م من مثل قوله : « إن الله تعالى قد يكشف للعارف وهو نائم في فراشه من السر ويفيض عليه من النور ما لا يكشفه للناائم في صلاته . وإذا استيقظت في العارف عين قلبه نامت عين جسده ، لأن العارف لا يرى سوى الحق » ويروي بعض المتصوفة أنه دخل عليه وهو يبكي

فقال له ما يبكيك ؟ فقال : ولم لا أبكي ، وإذا جن الليل ونامت العيون وخلأ كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم وتقطرت في محاريبهم أشرف الجليل سبحانه وتعالى فنادى يا جبريل ! بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلى ذكرى . وإنى لمطلع عليهم في خلوتهم أسمع أنينهم وأرى بكاءهم ، فلم لا تنادى فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ أم كيف يحمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تملقوا لى ، فبي حلفت إنهم إذا وردوا على القيامة لا كشفن لهم عن وجهى الكريم ، حتى ينظروا لى وأنظر إليهم .

وفكرة الحب الإلهى التى تعلق بها المتصوفة واضحة تمام الوضوح فى هذا النص ، وقد ترك الحارث بن أسد المحاسبى المتوفى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م كثيراً من النصائح التى إذا اتبعها السالك وصل إلى هذا الحب ، وذكر فى نصائحه أنه كان يسير أولاً فى طريق شائك ، ثم اهتدى إلى طريق المتصوفة الصالحين ، وكان يقول : « إن أول المحبة الطاعة ، وهى منتزعة من حب السيد عز وجل ، إذ كان هو المبتدئ بها ، وذلك أنه عرّفهم نفسه ودلهم على طاعته وتجب إليهم على غناه عنهم ، فجعل المحبة له ودائع فى قلوب محبيه ، ثم ألبسهم النور الساطع فى ألقاظهم من شدة نور محبته فى قلوبهم . . . والحب لله هو الحب المحكم الرصين وهو دوام الذكر بالقلب واللسان لله . وشدة الأنس بالله وقطع كل شاغل شغل عن الله . . . والحب إذا ثبت فى قلب عبد لم يكن فيه فضل للذكر لأنس ولا جان ولا جنة ولا نار ولا شئ إلا ذكر الحبيب وذكر أياديه وكرمه . . . وذكر ما وعد أوليائه من كشف الحجب لهم وأنهم لا يمحزنهم الفزع الأكبر . » وكان ذو النون المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م يرى أن غاية الحياة الصوفية الوصول إلى مقام المعرفة حيث يدرك الصوفى الحقائق بذوقه لا بعقله ، وكان يقول من علامات المحبة لله متابعة حبيب الله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه ، وقد سئل عن سبب توبته وسلوكه طريق المتصوفة فقال : أردت الخروج من مصر إلى بعض القرى ، فتمت فى الطريق فى بعض الصحارى ، ففتحت عيني ،

فإذا أنا بقبيرة عمياء سقطت من وكرها على الأرض ، فانشقت الأرض ، فخرج منها سكرجستان إحداهما ذهب والأخرى فضة ، وفي إحداهما سمس وفي الأخرى ماء ، فجعلت تأكل من هذا وتشرب من هذا ، فقلت حسبي قد تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلني الله عز وجل . ويحكى عن السرى السقطة المتوفى عام ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م أنه كان إذا أفطر كل ليلة ترك لقمة ، فإذا أصبح جاءت عصفورة ، وأكلت تلك اللقمة من يده ، وذات يوم اشتهى أكل الخبز بالقديد (اللحم المقدد) فامتنعت العصفورة من أكل اللقمة ، فعاهد نفسه أن لا يتناول أبداً شيئاً من الإدام . وقال تلميذه وابن أخته الجنيد : « دخلت يوماً عليه وهو يبكي ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : جاءني البارحة الصبية فقالت : يا أبت هذه ليلة حارة ، وهذا الكوز أعلقه ههنا ، ثم إنه حملني عيناى ، فنمت ، فرأيت جارية من أحسن الخلق قد نزلت من السماء ، فقلت لمن أنت ؟ فقالت : لمن لا يشرب الماء المبرد في الكيزان ، فتناولت الكوز ، فضربت به الأرض ، فكسرتة » .

ومن أكبر من طوروا التصوف وفتحوا أبواباً فيه يجتازها من يريد الوصول إلى ربه أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٧٤ م فقد أشاع الحديث عن الفناء في الذات العلية بحيث يحصر المتصوف نفسه في التأمل في ربه ، ولا يخطر بفرقه أى شيء سواه ، بل حتى يعطل حياته العقلية الشاعرة عن إدراك فوائده في ربه . وقد سئل كيف وصلت وحصلت هذه الدرجة من التصوف فقال : خرجت ذات ليلة من بسطام وكنت صبيهاً ، وقد أضواء القمر وسكن كل شيء ، فرأيت حضرة كانت العوالم الثمانية عشرة ألفاً إلى جانبها كالليرة ، فاضطربت واعتزني دهشة عظيمة ، وصحت يا رب ! ساحة خالية مع هذا العظم وملك موحد مع هذا الجلال ، وإذا بهاتف من السماء يقول : ليس خلو الساحة من انعدام اللاجئيين ، بل لأننا غير ذلك شتاً ، فإنه ليس كل من عتق وجهه أهلاً للدخول في هذه الساحة » . وقال : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح

منى في : يا من أنت أنا ، فتحققت بمقام القضاء في الله . وقال : « كنت اثني عشر عاماً حداد نفسي ، ألقيت بها في كور الرياضة وأحرقها بنار المجاهدة ، ووضعتها على سندان المذمة ، وطرقها بمطرقة الملامة ، حتى جعلت منها مرآة . وكنت خمس سنين مرآة نفسي أصقلها دائماً بأنواع من العبادة والتقوى ، وسنةً أنظر فيها بعين الاعتبار ، وقد نظرت فإذا في وسطى زُتار من الكبر والعجب والرياء والاعتماد على الطاعات والنظر بعين الارتياح إلى الأعمال . فعملت خمس سنين حتى انقطع ذلك الزنار واعتنقت الإسلام من جديد . ونظرت إلى الخلق قرأتهم موتى ، فكبرت عليهم أربع تكبيرات ، ورجعت من جنازتهم جميعاً ، ووصلت إلى الله بعون الله وحده من غير وساطة من الخلق . وفي مثل هذا المعنى قال : « منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتي ، فصرت اليوم مرآة نفسي ، لأنني لست الآن من كُنْته . وفي قولي "أنا" و"الحق" إنكار لتوحيد الحق لأنني علم محض ، فالحق تعالى مرآة نفسه ، بل انظر إن الحق مرآة نفسي لأنه هو الذي يتكلم بلساني ، أما أنا فقد فنيته . » وتنسب إليه أقوال تدل على أنه كان ينزع إلى فكرة وحدة الوجود من مثل قوله : « خرجت من بايزيديتي كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد لأن الكل واحد في عالم التوحيد . »

ونظراً للحلّاج المتوفى سنة ٣٠٩ هـ / ١٩٢١ م مقتولاً بفكرة وحدة الوجود خطوات وكتابه « الطواسين » تصويراً لأحواله ومقاماته الصوفية ، وهو ملء بالرموز الغامضة ، وكثير من عباراته يشبه الطلاسم ، فهي تستعصي على الحل والفهم ، وإن قوله الذي شاع عنه : « أنا الحق » يلخص نظريته ، إذ يريد بالحق الذات العلية ، وشرح نظريته في ذلك فقال :

« تجلي الحق لنفسه في الأزل قبل أن يخلق الخلق ، وقبل أن يُعلم الخلق ، وجرى له في حضرة أَحَدِيَّتِهِ مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف ، وشاهد سبحات ذاته في ذاته . وفي الأزل — حيث كان الحق ولا شيء معه — نظر إلى

ذاته فأحبّها وأثنى على نفسه ، فكان هذا تجلياً لذاته في ذاته في صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حدّ . وكانت هذه المحبة علة الوجود والسبب في الكثرة الوجودية . ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتي ماثلاً في صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها ، فنظر في الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه ، لها كل صفاته وأسمائه ، وهي آدم الذي جعله الله صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو عظمه ومجّده واختاره لنفسه ، وكان من حيث ظهور الحق بصورته فيه وبه هو هو . ونراه يمثل الوصول إلى الحقيقة على هذا النحو : « الخواطر علائق ، وعلائق الخواطر لا تصل إلى الحقائق ، والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة . الحق وراء الحقيقة ، والحقيقة دون الحق ، الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال ، فيخبرهم عن الحال بألطف المقال ، ثم يمرح بالدلال طمعاً في الوصول إلى الكمال . صورة المصباح عليهم الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة ، والوصول إليه حق الحقيقة . لم يرض بضوئه وحرارته ، فليقلّ جملته فيه ، والأشكال ينتظرون قدومه ، فيحذرون عن النظر حين لم يرض بالخبر ، فحينئذ يصير متلاشياً متصاعراً متطابراً ، فيبقى بلا رسم وجسم ، واسم ووسم ، فلا شيء معنى يعود إلى الأشكال وبأى حال بعد ما سار . صار من وصل إلى النظر استغنى عن الخبر ، ومن وصل إلى المنظور استغنى عن النظر » . وكان يرى أن « من هذب في الطاعة نفسه واشتغل بالأعمال الصالحة قلبه وصبر على مفارقة اللذات ، وملك نفسه في متع الشهوات ارتقى بها إلى مقام المتقربين ، ثم لا يزال يتنزّل في درج المصافاة حتى يصفو عن البشرية طبعه ، فإذا لم يبق فيه من البشرية نصيب حلّ فيه روح الله . . فيصير مطاعاً ، فلا يريد شيئاً إلا كان من كل ما ينفذ فيه أمر الله ، وإن جميع فعله حينئذ فعل الله وجميع أمره أمر الله » . ومن شعره قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حملنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرتّه وإذا أبصرتّه أبصرتنا

وقوله :

مُزِجَتْ رُوحَكَ فِي رُوحِي كَمَا تُمَزِّجُ الْخَمْرَةَ بِالْمَاءِ الزَّلَالِ
فَإِذَا مَسَّكَ شَيْءٌ مَسَّنِي فَإِذَا أَنْتَ أَنَا فِي كُلِّ حَالٍ

وَعُدَّتْ هَذِهِ الْآرَاءُ وَمَا يَمِثِّلُهَا خُرُوجاً عَلَى الْإِسْلَامِ وَتَعَالِيمِهِ فَأَفْتَى فَقَهَاءُ عَصَرِهِ
بِقَتْلِهِ ، وَحُبْسِ طَوِيلًا . ثُمَّ قَتَلَ . وَمِنَ الْآرَاءِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي نَسَبَتْ إِلَيْهِ اتِّخَاذَهُ إِبْلِيسَ
مَثَلًا لِلْمُتَصَوِّفَةِ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَسْجُدَ لِآدَمَ ، حَتَّى لَا يَسْجُدَ لغيرِ رَبِّهِ ! وَيُظْهِرُ
أَنَّهُ مَزَجَ تَصَوُّفَهُ بِشَعُوذَةٍ غَيْرِ قَلِيلَةٍ .

وَلَسْنَا نَسْتَطِيعُ الْمَضَى فِي هَذِهِ السَّيْرِ الصُّوفِيَّةِ الَّتِي تَقْصُهَا كُتُبُ الطَّبَقَاتِ لِأَنَّهَا
بَابٌ يَطُولُ ، وَيُخْرِجُ بِنَا عَنْ غَايَتِنَا مِنْ هَذَا الْكُتَيْبِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلرَّجَمَةِ
الشَّخْصِيَّةِ يَكْتُبُهَا صَاحِبُهَا قَاصِداً ، وَأَكْثَرُ مَا قَدَمْنَاهُ إِنَّمَا هُوَ فِي وَصْفِ الْمُتَصَوِّفَةِ
لِسُلُوكِهِمْ وَطَرِيقِ تَخْلُصِهِمْ إِلَى غَايَتِهِمْ ، وَقَلَّمَا نَجِدُ عِنْدَهُمْ اعْتِرَافَاتٍ مِثْلَ هَذَا
الاعْتِرَافِ الَّذِي يَذْكُرُهُ الْحُجُورِيُّ فِي « كَشْفِ الْمَحْجُوبِ » وَهُوَ مِنْ مُتَصَوِّفَةِ الْقَرْنِ
الْخَامِسِ الْهَجَرِيِّ (الْحَادِي عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ) إِذْ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ صَانَهُ مِنْ آفَةِ الزَّوْجِ
أَحَدَ عَشَرَ عَاماً ، ثُمَّ وَقَعَ فِي قَتْنَةٍ لِمُدَّةِ عَامٍ ، إِذْ أَصْبَحَ أَسِيراً لِتِلْكَ الَّتِي لَمْ يَرَهَا ،
وَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ عَاماً ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَهْلِكَ ، وَأَخِيرًا مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ بَلْطَفُهُ فَعَصَمَ
قَلْبَهُ الضَّعِيفَ ، وَخَلَصَهُ مِنْ مَحْنَتِهِ .

وَلَمْ نَتَعَرَّضْ لِكِرَامَاتِ الْمُتَصَوِّفَةِ ، وَهِيَ الْآخَرَى تَعُدُّ مِنْ تَجَارِبِهِمْ ، إِذْ كَانَتْ
تَعْتَقِدُ الْعَامَّةُ فِيهِمْ أَنَّهُمْ يَأْتُونَ بِبَعْضِ الْخَوَارِقِ ، وَهِيَ تَقَابِلُ عِنْدَهُمْ مَعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ .
وَتَقْصُّ كُتُبُهُمْ أَطْرَافاً مِنْ ذَلِكَ كُلِّهَا عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، كَأَنَّ يَطِيرُ أَحَدُهُمْ فِي
الْهَوَاءِ أَوْ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ . وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ ضَرْباً مِنَ التَّخْيِيلِ .

وَشَاعَ عِنْدَ غَيْرِ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْقَوْلُ بِإِسْقَاطِ الشَّرَائِعِ وَتَعْطِيلِ الْعِبَادَاتِ ، اكْتِفَاءً
بِالْوَصْلِ وَانْكَشَافِ الْحَقِيقَةِ ، وَانْبَرَى مِنْهُمْ كَثِيرُونَ يَرُدُّونَ عَلَى هَذَا الْإِعْتِقَادِ
الْفَاسِدِ كَمَا انْبَرَى لَهُمْ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ يَسْأَلُونَ آرَاءَهُمْ وَمَا « رِسَالَةُ الْقَشِيرِيِّ » الْمَشْهُورَةِ

إلا رد على أصحاب هذا الزعم بما تروى من سير فضلائهم ، الذين كانوا يرون القيام بالفروض الدينية باب الوصول الحقيقي .

ولا نصل إلى القرن الخامس الهجرى حتى يقوم شقاق واسع بين الفقهاء من أصحاب الشريعة والمتصوفة من أصحاب الحقيقة . ولا يلبث الغزالي أن يظهر ، فيطهر التصوف من الأدران التي علق به من مثل الحلول والإيمان بوحدة الوجود ، وتعطيل فروض الشريعة . وبذلك يرفع الحواجز التي أقامها الطرفان المتعاندان من الفقهاء والمتصوفة . ولم يصل إلى هذه الغاية إلا بعد رحلة عقلية شاقة قصها علينا في كتابه « المنقذ من الضلال » . وربما كان أطرف التراجع الشخصية التي خلفتها لنا العصور الوسطى ، ومن أجل ذلك نخصه هو وصاحبه بكلمة .

٢

الغزالي

بعد الغزالي أكبر عقلية خدمت الشريعة والتصوف في وقت معاً ، فقد وقف حياته على التوفيق بين هذين الاتجاهين ، ولد في طوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ، ولم يلبث والده أن توفي بعد أن عهد بتربيته إلى صديق له صوفي .

واتجه الغزالي إلى دراسة الفقه وعلم الكلام ، ورحل في سبيلهما إلى نيسابور ؛ فتتلمذ على إمام الحرمين العالم الشافعي المتكلم المشهور ، وأخذ منه تتلمذه على هذا الشيخ يضيق بمجدد الفقهاء وكثرة تفاريحهم . كما أخذ يضيق بدقائق الكلاميين ، وتحول ذلك في نفسه إلى شك في حقيقة هذين العلمين ، وأيضاً أخذ يشك في آراء الفلاسفة . وحدث أن قدم على مجلس نظام الملك وزير السلطان

السلجوقي فأعجب به ، وعهد إليه أن يقوم بتدريس الفقه وعلم الكلام في مدرسته المشهورة باسم المدرسة النظامية ، وكانت أكبر جامعة إسلامية في هذا الحين ، وظل يقوم بهذا التدريس من سنة ٤٨٤ هـ إلى سنة ٤٨٨ هـ وفي هذه الأثناء ألف في الفلسفة كتاباً دلّ فيه على أنه أحسن الإمام بأصولها ومسائلها عند ابن سينا والفارابي وغيرهما من متفلسفة المسلمين . ولم يكن يقصد بكتابه إلى دراسة الفلسفة من حيث هي ، وإنما أراد أن يصور مسائلها تصويراً دقيقاً حتى يهدمها في كتابه المشهور « تهافت الفلاسفة » . وتحول يشك في الفقه والكلام اللذين يدرسهما ، ويرى أنهما قاصران عن بث الطمأنينة في قلب المسلم ، إذ لا يستطيع عن طريقهما تذوق الحقيقة العليا ، حقيقة الذات الإلهية .

وفجأة ينقطع عن التدريس في المدرسة النظامية ، ويصرخ فيه هاتف باطنى يدعوه أن ينصرف عن الدنيا ومطامعها ، ويمرض ، ويشقى من مرضه وقد عزم على الرياضة والمجاهدة والخلوة والعزلة عن الناس ، ويرحل عن بغداد ويسبح في الأرض متقللين معابد وصوامع الحجاز والشام ومصر . وفي أثناء ذلك يؤلف كتبه وقد تحول ناسكاً عابداً ، وفي الوقت نفسه مصلحاً دينياً ، يؤمن بأن الدين تذوق باطنى ، وليس مجرد أحكام تعلل وإنما هو كما يقول المتصوفة شئ « تشعر به الروح وتتلقوه . وعن طريق هذا الشعور والتلوق يصل المسلم إلى المعرفة اليقينية التي ينشدها . وهو يطهر هذه المعرفة ، فليس فيها إيمان بحلول كما يغلو بعض المتصوفة . وليس فيها لإبطال ولا إنكار لأحكام الشريعة ، بل التصوف الحق هو الذى يصل بين هذه الأحكام والقلب . وبهذه الروح عالج الأحكام والسنن الشرعية في كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » وكتبه الأخرى التي ذاعت في العالم الإسلامى وعُدَّ بها « حجة الإسلام وزين الدين » . وعاد في أواخر أيامه إلى وطنه واشتغل بالتدريس في نيسابور ، وكتب كتابه « المنقذ من الضلال » يصف رحلته العقلية ، وكيف وصل أخيراً إلى الحق ، ولم يلبث أن توفي بطوس سنة ٥٠٥ هـ / ١١١١ م .

والغزالي يفتح كتابه بأن بعض إخوانه سأله أن يشرح كيف ارتفع عن حضيض التقليد إلى قمم الاستبصار وتحصيل العلم اليقيني ، ويقول إن « اختلاف الخلق في الأديان والمثل ثم اختلاف الأئمة في المذاهب على كثرة الفرق وتباين الطرق بجر عميق ، غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون ، وكل فريق يزعم أنه الناجي وكل حزب بما لديهم فرحون » . ويذكر أنه منذ شبابه إلى أن أناف على الخمسين يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض أغواره وأعماقه خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، ودعاه ذلك إلى أن يتوغل في الاطلاع على كل مذهب عند أهل السنة وعند الباطنية وعند الفلاسفة والمتكلمين وعند الصوفية المتعبدين ، بل أيضاً عند الزنادقة والملحدين . ويقول إنه طُبِعَ منذ الشباب على ترك التقليد ، ومحاولة مغرفة الطريق إلى العلم اليقيني الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يَبْقَى معه ريب ، واجتاحته في أول أمره لذلك موجة من الشك ، أنقذه الله منها ، يقول :

«أعضل هذا الداء "داء الشك" ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة "الشك" بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفا الله تعالى ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن كل ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة ، فقد ضيقت رحمة الله الواسعة » .

ولما شفاه الله من هذا المرض انحصرت أمام عينه فرق طالبي الحق في أربعة أصناف هم (١) المتكلمون (٢) والباطنيون من الشيعة (٣) والفلاسفة أهل المنطق والبرهان (٤) والصوفية أهل المشاهدة والمكاشفة . وأخذ بسلك طرق هذه الفرق ، ينشد الحق مبتدئاً بعلم الكلام ، حتى إذا لم يجد فيه طلبته انتقل إلى الفلسفة ، فافتقد بغيته ، فتحول إلى تعاليم الباطنية ، فلم يجد فيها أمنيته ، وانتهى أخيراً إلى التصوف . فوجد فيه النور الذي كان ينشده .

ويصف لنا أولاً رحلته في علم الكلام ، وكيف تعمق في دراسة مباحثه وأهم كتبه ، بل لقد ألف فيه ، ويصور لنا غايته وهي حفظ العقيدة الإسلامية وحراستها من تشويش أهل البدع ، وهي غاية نبيلة . إلا أن الغزالي لم يلبث أن لاحظ قصور أدلة المتكلمين لاعتمادها على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطروهم إلى التسليم بها التقليد أو إجماع الأمة أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ومواقفتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع في جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً . فلم يكن الكلام له كافياً ؛ ولا لدائه الذي يشكوه شافياً .

ومعنى ذلك أنه عد أدلة الكلاميين إسرافاً عقلياً لا غناء فيه ، لسبب بسيط وهو أنه لا يتفق مع بساطة الفكر الديني ، وتحول إلى الفلسفة لعله يجد فيها ما يشفيه من مرضه . وبدأ فدرسها دراسة دقيقة ، وكان في أثناء ذلك يلقي محاضراته على ثلاثمائة طالب بالمدرسة النظامية . فلم يصرفه هذا العمل عن تحصيلها ؛ بل لقد واصل النظر فيها ، حتى عرف فِرَقَهَا واختلاف مذاهبها وطوائفها ، وقد انتهى إلى أنهم ثلاثة أصناف : صنف دهريون جحدوا الصانع المدير ، وزعموا أن العالم لم يزل موجوداً بنفسه وبلا صانع ، وهم الزنادقة . وصنف طبيعيون يكثرون من البحث في عالم الطبيعة ، وهدهام هذا العالم إلى أن له صانعاً حكماً ، ولكنهم لم يعتقدوا في شيء وراء ذلك فلم يؤمنوا بالبعث والنشور . وهم أيضاً زنادقة وإن آمنوا بالله وصفاته . وصنف ثالث إلهيون ردّ على الصنفين الأولين ، ولكنه استبقى من رذائل كفرهم وبدعهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، ومن هذا الصنف أرسططاليس ومفلسفة المسلمين كابن سينا والفارابي . ونراه بعد ذلك يتحدث عن علوم المتفلسفة فيقول إنها بالنسبة إلى الشريعة ستة أقسام : (١) رياضيات (حساب وهندسة وعلم هيثة) وهي أمور برهانية لا تجحد معرفتها إلا أنه تولد منها آفتان ، أولاً أن من ينظر فيها يعجب بدقائقها وظهور براهينها ، فيحسن اعتقاده في الفلاسفة وينسحب هذا الاعتقاد على ما يقولونه في الإلهيات ، ناسياً

أن كلامهم في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني . وثانية الآتين جاءت من أصدقاء الإسلام الجاهل الذين ينكرون الفلسفة حتى رياضياتها ، فشككوا الناس في الدين إذ ظنوا أنه مبني على إنكار البراهين القاطعة . (٢) ومنطقيات ، وهي لا يتعلق شيء منها بالدين نفيًا وإثباتًا ، وهي تشبه ما ذكره المتكلمون من أدلتهم ، وآفة الرياضيات . (٣) وطبيعيات ، والدين لا ينكرها إلا في بعض مسائل سبق أن ذكرها في كتابه « تهافت الفلاسفة » . (٤) وإلهيات وفيها أكثر أغاليطهم ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها ، ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً : وكفرهم الغزالي في ثلاثة منها وهي : أن الأجساد لا تحترق وإنما تحترق الأرواح . والله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات وهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض . ثم قولهم بتقديم العالم وأزليته . (٥) وسياسيات ترجع إلى الحكيم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، وهي لا تتعارض مع الدين ، بل إنها تستمد منه . (٦) وخلقيات وهي معارف تهذيبية أخذوها عن المتصوفة ومزجوها بكلامهم . ويرى الغزالي أن لمجموع هذه العلوم آفتين : أن من يؤمن ببطلانها قد يرد ما نقل إليها من الدين وكلام الرسل والأنبياء والمتصوفة وما جاء على ألسنة عبّادهم ونسّاكهم : لأن أطرافاً من كل ذلك مزجوها بكلامهم . والآفة الثانية أنه قد يرى هذه الأقوال التي يؤمن بصحتها عندهم ، فيؤمن جملة بآرائهم وما فيها من باطل . ولذلك دعا الغزالي إلى تمحيص كتبهم بل زجر عن مطالعتها . ونهى عن قراءتها : لما فيها من مزالق ومخاطر .

ويقول الغزالي إنه بعد أن فرغ من علم الفلسفة وتزييفه وعرف أن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب انتقل إلى تعاليم الباطنية التي شاعت في عصره فطلب كتبهم وجمع مقالاتهم . ودرسها دراسة فاحصة ، وأخذ في تقرير شبهاتهم إلى أقصى الإمكان . ثم أظهر فسادها بغاية البرهان . وقد وقف عند قولهم بأنه لا بد من معلم معصوم يعلم الأمة . وارتضى هذا القول ، ولكن على أن المعلم المعصوم هو الرسول صلى الله عليه وسلم . لا الإمام كما تقول الباطنية . وقال إنه لا

يضر هذا المعلم وأمته أن يموت بعد أن أكمل التعليم وبث دعائه في البلاد . وهو في ذلك يرد على فكرة الغيبة التي يؤمن بها بعض الشيعة . ووقف أيضاً عند رفضهم للاجتهاد والاقتصار على النص المأثور عن أئمتهم ، وقال إننا نحكم بالنص عند وجوده فإن لم نجده اجتهدنا . وقال إن الاجتهاد ضروري لسبب بسيط ، وهو أن « النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية . فلا بد من الاجتهاد في إرجاع الوقائع الخاصة إلى النصوص العامة » . فعلى العاقل أن يجتهد رأيه فيما وراء قواعد العقائد من التفصيل ، ويقول إنه ليس الغرض الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتب أخرى . بل « المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء .. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم .. ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً » . وبذلك ينفذ يده من الباطنية كما نفّضها من الفلاسفة قبلهم والمتكلمين . ولا يبقى أمامه إلا طرق الصوفية . فيسلّكها قائلاً :

« إلى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تم بعلم وعمل ، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصّل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله . وكان العلم أيسر على من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل "قوت القلوب" لأبي طالب المكي وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم . حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية . وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم . بل بالدق والخال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشيع وأسابيها وشر وطهما وبين أن يكون "الإنسان" صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حدّ السكر .. وبين أن يكون "الإنسان" سكران . بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعلمه . وهو سكران وما معه من علمه شيء . والصاحي يعرف حدّ السكر وأركانه وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض يعرف حَدَّ الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة . وكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشرورها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا . فعلمت يقيناً أنهم ”الصوفية“ أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال . وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته : ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم . بل بالذوق والسلوك . وكان قد حصل معي من العلوم التي مارسها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية إيمانٌ يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر . فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت رمت في نفسي لا بدليل معين محرّر ”متحرّري“ بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها . وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكفّ النفس عن الهوى . وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافى عن دار الغرور والإقامة إلى دار الخلود والإقبال بكُنْه المهمة على الله تعالى ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق . ثم لاحظت أحوالي ، فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدثت بي من كل الجوانب ، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبلٌ على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة . ثم تفكّرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعها ومحرّكها . طلبُ الجاه وانتشار الصيت ، فتيقنت أنني على شفا جرف هار ، وأني قد أشفيت على النار ، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال . فلم أزل في التفكير مدة وأنا بعدُ على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً ، وأحلّ العزم يوماً ، وأقدّم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى ، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا وتحمل عليها جُنْد الشهوة جملة ، فتفتّرها عشية : فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل الرحيل ، فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فتي تستعد ، وإن لم تقطع الآن

هذه العلائق فتي تقطع ؟ . . ثم يعود الشيطان ويقول : هذه حال عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال . فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض "وظيفته في المدرسة النظامية" والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنقيص والأمن الصافي عن منازعة الخصوم ربما التفتت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعادة . فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة أشهر ، وألها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وعلى هذا النحو يصف الغزالي ما ألمَّ به من صراع نفسي عنيف نشأ عن حيرته ، فهل يضحي بجاهه العريض ويرحل عن بغداد أو يظل في هذا الجاه الذي أكسبه إياه توفيقه في الدرس والتعليم ؟ . ووقع مدة ستة أشهر فريسة هذين الباعثين القويين . فيوماً يعزم على الخروج ويوماً ينشئ عن هذا العزم ، ويوماً يقدم رجلاً ويوماً يؤخر أخرى . حتى جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فلم يعد يمكنه التدريس ، بل لم يعد يمكنه النطق بالكلام . وأورثه ذلك حزناً في القلب بطلت معه قوة الهضم والرغبة في الأكل والهناة في الشراب ، وضعفت قواه ضعفاً تاماً ، وسُدَّتْ أمامه جميع الأبواب ولم يبق أمامه مفتوحاً إلا باب التصوف ، فسلكه راضياً مرضياً ، يقول :

« ثم لما أحسست بعجزى . وسقط بالكلية اختياري . التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . . ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال . . ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلو والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علم الصوفية .

فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق ، وأصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي . ثم رحلت منها إلى بيت المقدس ، أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسي . ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه . فسرت إلى الحجاز . ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، وآثرت العزلة به أيضاً حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر . . ودمت على ذلك مقدار عشر سنين ، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها . .
وهنا تنتهي رحلة الغزالي العقلية . فقد تخلص عقله من الأبحاث المتتوية التي تعمقها في بيئات المتكلمين والمتفلسفة والباطنية ، ووجد خلاصه أخيراً في بيئة المتصوفة ، حيث يتحول الشعور الديني إلى تجربة ذاتية قلبية ، تُدرك بالدوق لا بالعقل ، وقد أخذ يشيد بالتصوف وأصحابه قائلاً :

« إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقتهم أذكى الأخلاق . بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقتهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وبالجمله فإذا يقول القائلون في طريقة . . أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى . ومفتاحها . . استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله . . ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات . . وكرامات الأولياء على التحقيق هي بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله عليه السلام حين أقبل إلى جبل حراء حين كان يخلو فيه بربه ويتعبد . حتى قالت العرب إن محمداً عشق ربه » .

وواضح من ذلك أنه يربط بين التصوف ونبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تصوفه هو الذى هداه إلى حقيقة النبوة . فالرسول هو منبع الحياة الدينية الروحية ، ومنبع النور الذى يفيض على المتصوفة من أمثال الغزالي . ومعنى هذا أنه عرف حقيقة النبوة عن طريق شعوره الشخصى بأشياء هى من خصائص الرسول والرسالة ، يقول : « وما بان لى بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها » . ثم يعقد فصلاً خاصاً لها يبين فيه أنها تدرك بدراسة القرآن والأحاديث وأحوال الرسول كما تدرك بذوق المتصوفة وما يشاهدونه فى أنفسهم من خصائص النبوة .

وشعر الغزالي شعوراً عميقاً فى نفسه بأنه مصلح دينى وأن عليه أن يمكن عقيدة الصوفية فى نفوس الناس ، ولذلك تحركت فى نفسه عوامل الرجوع إلى نشر العلم ، فأخذ فى نشر كتبه وعلى رأسها كتابه « إحياء علوم الدين » . وخرج من عزلته ، ورحل إلى نيسابور ، وأخذ يعلم الناس ، ويشغل بالتدريس ، وفرق بين ما يدرسه الآن وما كان يدرسه سابقاً فى بغداد ، فهو كما يقول إنما يدرس « العلم الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه » مبتغياً أن يصلح نفسه وغيره . ويختم كتابه بقوله : « نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباها ، وأرشدته إلى الحق وهده » . . .

بعد الغزالي

رأينا الغزالي يترجم لحياته العقلية وتطورها ، حتى انتهى إلى طريق التصوف ،
فألقى عصاه عنده ، وقنع بما وجد فيه من نور أضاء به قلبه . ولا نجد بعده
متصوفاً يترجم حياته على نحو ما تقدم في غير هذا الموضع من تراجم المتفلسفة
مثلاً ، إنما يعنى المتصوفة كما رأينا في أول هذا الفصل بوصف سيرتهم الصوفية
وقد يذكرون بعض تجاربهم ، وقد تتحول بعض كتبهم إلى تجارب خالصة ،
ولكنها جميعاً ليست من الترجمة الشخصية بمعناها التام ، وهى الترجمة التى تعنى
بالشخص ووصف حياته وحقائقها بكل ما صادفه فيها من شر وخير وبؤس ونعيم.
ويكاد يكون لكل صوفي حديثه عن تصوفه وبعض تجاربه ، وسنكتفى ممن
جاءوا بعد الغزالي بثلاثة هم ابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م وابن
عربي المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م والشعراني المتوفى سنة ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م.
أما ابن الفارض ، فقد خلف قصيدة سماها نظم السلوك ، وهى ثابته الكبرى التى
يصور فيها معراجه الروحي وما عاناه في هذا المعراج من شدائد ، حتى وصل إلى
مقام الاتحاد بالذات العلية ، ويقص لنا ذلك قصصاً بديعاً ، واستمع إليه يصف
ما تحمله من مشقة وعناء في أول عهده بالحب الإلهي ، يقول :

ونفسى كانت قبلُ لوامةً متى	أطعها عصتُ أو أعصتُ كانت مطيعتى
فأوردتها ما الموتُ أيسرُ بعضه	وأعبتها كيما تكون مريحتى
وكلفتها ، لا بل كلفتُ قيامها	بتكليفها حتى كلفتُ بكلفتى
وأذهبت في تهذيبها كل لذة	بإبعادها عن عادها فاطمأت
وكل مقام عن سلوك قطعت	عبوديةً حققتها بعبودية

ويخرج من هذا الإجمال في إيراد نفسه موارد الملكية ، حتى تسكن إلى الطريق ، يخرج من ذلك إلى بيان أعمال العبادة التي أخذها بها ، وهي النسك والفقه ، والصوم ، وتلاوة القرآن بالليل ، وترتيل الأوراد ، وكثرة الاعتكاف ، والسياحة في الأرض ، والقناعة والزهد ، ورياضة نفسه على العشق والحبة ، يقول : رجعتُ لأعمال العبادة عادةً وأعددتُ أحوال الإرادة عدتي وعدتُ بنسكي بعد هتكى وعدت من خلاعة بسطحي لانتقباض بعفة وصمتُ نهاري رغبةً في مثونة وأحييت ليلي رهبةً من عقوبة وعمرتُ أوقاتي بورْد لوراد وصمتُ لسمت واعتكاف لحزمة وبنتُ عن الأوطان هجران قاطع ومواصلة الإخوان واخترتُ عزلي وأنفقت من يسر القناعة راضياً من العيش في الدنيا بأيسر بلغة وهذبت نفسي بالرياضة ذاهباً إلى كشف ما حُجب العوائد غطت

وعلى هذا النحو نجد ابن الفارض في تائيته يصور لنا سيرته الشخصية في التصوف وما أخذ به نفسه في حياته العملية .

وتكاد تكون كتب ابن عربي كلها تصويراً لسيرته الصوفية ، التي تقوم من جهة على الإيمان بوحدة الوجود كما تقوم على المكاشفات والمشاهدات التي ترفع الخنجب عما وراء الغيب .

ومعروف أن ابن عربي أندلسي الأصل وأنه وجد طريقه إلى التصوف على شيوخ من بلده ، ثم ساه في العالم الإسلامي وبلاد الروم سياحة متصلة ، يتعلم فيها ويعلم ويناقش . وتكثر عنده الرؤى والأحلام ، ومن أوائل أحلامه قوله : إنه « في ليلة من الليالي تزوج زواجاً صوفياً بكل نجوم السماء والحروف » ويقول إن بعض العارفين فسّر له ذلك بأن الله يفتح له العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب . وقد جاور في مكة سنة ٥٩٨ هـ / ١٢٠١ م وفي هذه المجاورة تعلق بفنائه تسمى « نظاماً » وأوحى إليه بديوانه « ترجمان الأشواق » وظاهره عشق بهذه الفتاة ، وباطنه معان صوفية يقصد بها العشق الإلهي والفناء في الذات العلية . ومن

أهم كتبه « فصوص الحِكم » وهو يعرض فيه لإحباطات يردّها إلى الأنبياء الذين أرسلوا للناس ، وكلها تقطع وتشهد بفكرة وحدة الوجود . وأوسع كتبه وأجمعها لآرائه ومكاشفاته وأحلامه « الفتوحات المكية » وهو يذكر في فاتحته هذه الرؤيا التي رآها حين بدئه في الكتاب . يقول بعد التحميد :

« الصلاة على سر العالم ونكته . ومطلب العالم وبغيته ، السيد الصادق ، المدلج إلى ربه الطارق ، المحترق به السبع الطرائق ”السّموات“ ليريه حين أسرى به إليه ما أودع من الآيات والحقائق ، فيما أبدع من الخلائق ، الذي شاهدته عند إنشائي لهذه الخطبة في عالم الحقائق ، في حضرة الجلال ، مكاشفة قلبية ، في حضرة غيبية . . شاهدته صلى الله عليه وسلم في ذلك العالم سيداً معصوماً المقاصد ، محفوظ المشاهد ، منصوراً للناس مؤيداً وجميع الرسل بين يديه مصطفون ، وأمه التي هي خير أمة أخرجت للناس عليه ماتفون ، وملائكة التسخير من حول عرش مقامه حاقون ، والملائكة المولدة من الأعمال بين يديه صاقون ، والصدّيق عن يمينه الأنفس ، والفاروق عن يساره الأقدس ، والختم عليه السلام بين يديه قد جثا ، يخبره بحديث الأنبياء ، وعلى صلى الله عليه وسلم يترجم عن الختم بلسانه ، وذو النورين مشتمل برداء حياته مقبل على شانه ، فالتفت السيد الأعلى - والمورد العذب الأحلى ، والنور الأَكشف الأجلّ ، فرآني وراء الختم ، لا شراك بيني وبينه في الحكم ، فقال له السيد : هذا عديلك ، وابنك وخليتك ، انصب له منبر الطرّقاء بين يدي . ثم أشار إلىّ : أن قم يا محمد عليه ، فأتيت على من أرسلني وعلىّ ، فإن فيك شعرة مني ، لا صبر لها عني ، هي السلطنة في ذاتيتك ، فلا ترجع إلىّ إلا بكليتك ، ولا بد لها من الرجوع إلى اللقاء ، فإنها ليست من عالم الشقاء : فما كان مني بعد بعثي شيء في شيء إلا سعيد ، وكان ممن شكرك في الملأ الأعلى ومُجد . فنصب الختم المنبر في ذلك المشهد الأخطر ، وعلى جبهة المنبر مكتوب بالنور الأزهر : هذا هو المقام الحمدي الأطهر ، من رقي فيه فقد ورثه ، وأرسله الحق في العالم حافظاً لحرمة الشريعة

وبعثه . ووهبت في ذلك الوقت مواهب الحكم ، حتى كأني أوتيت جوامع الكلم ، فشكرت الله عز وجل وصعدت أعلاه ، وحصلت في موضع وقوفه صلى الله عليه وسلم ومستواه ، وبُسط لى على الدرجة لتي أنا فيها قميص أبيض ، فوقفت عليه ، حتى لا أباشر الموضع الذى باشره صلى الله عليه وسلم بقدميه تنزيهاً له وتشريعاً .. ثم رُددت من ذلك المشهد النوى العلى ، إلى العالم السفلى ، فجعلت ذلك الحمد المقدس خطبة الكتاب ، وأخذت في تتميم صورته . وتفيض كتابات ابن عربى على هذه الشاكلة بتجارب روحية يستمدّها حيناً من أحلامه وحيناً من يقظته ، وجميعها تعبر عن انجذاب صوفي عنيف .

وأما الشعرانى فأمام متصوفة مصر في أوائل العصر العثمانى ، وقد خلف كثيراً من المؤلفات في التصوف وغيره ، وتمتاز مؤلفاته الصوفية بالبساطة ، وهى تمتلئ بالحديث عن نفسه وشيوخه ومن سبقهم ، يورد ذلك في سداجة .

ويهمنا هنا كتابه « لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق » فإنه قصّ علينا في هذا الكتاب سيرة حياته مجملّة ، ثم أخذ يسرد مناقبه وأخلاقه وفي العادة يبدأ كل خلق وكل منقبة بقوله : وما من الله علىّ به كذا أو وما أنعم الله علىّ كذا ، ثم يذكر المنقبة أو الفضيلة .

ونراه في الباب الأول يتحدث عن نسبه ، ويقول إنه من ذرية محمد بن الحنفية ، وإن جده الأعلى كان سلطاناً لبلاد تلمسان في المغرب ، وتزهد أحد أبنائه وتبع أبا مدين التلمسانى الإمام الزاهد ، فأرسله في بعض أتباعه إلى مصر ، واستقر فيها ، وكان حفيده أحمد ينزل من قرية « ساقية أبى شعرة » بإقليم المنوفية . وإليها ينسب الشعرانى واسمه عبد الوهاب بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن محمد بن الشيخ موسى الذى وفد على مصر كما أسلفنا من المغرب ، ويظهر أن أبنائه كانوا مشايخ طرق من بعده .

وحفظ الشعرانى القرآن الكريم في قريته وواظب على الصلوات الخمس منذ كان في الثامنة من عمره ، ويذكر كرامة حدثت له وهو صغير فإنه سبّح في

النيل وأوشك على الغرق ، لولا تمساح امتد تحت رجله ، فوقف عليه ، حتى استراح ، ثم تابع سباحته ، ونجا . وهاجر من الريف إلى القاهرة لقراءة العلوم وحفظ المتون والكتب ، ويحصى ما حفظه من مثل ألفية ابن مالك والتوضيح لابن هشام وجمع الجوامع للسيوطي وجميعها في النحو ، ومثل تلخيص المفتاح في البلاغة وكتاب المنهاج للنووي في الفقه والشاطبية في القراءات . ويذكر لنا أنه جلس إلى حلقات الشيوخ الذين كانوا يشرحون هذه الكتب والمتون من مثل الشيخ زكريا الأنصارى . ويسرد علينا ثباتاً طويلاً بالشروح التي قرأها ، في مختلف العلوم والفنون ، ويقول إنه كان يأخذ بالأحوط في دينه وأنه لم يأخذ الرخصَ إلا بالطريق الشرعي ، وإنه ما زال حتى تبحر في الفقه على جميع المذاهب وألف فيه ، وأعجب الفقهاء المختلفون بتأليفه ، وأذن له الشيخ زكريا الأنصارى أستاذ عصره بتدريس علم الفقه والتفسير والتصوف ، وأخذ يكثر من مطالعته لكتب الشريعة وآلاتها من حديث وأصول ، كما أخذ يكثر من التأليف .

ولما تبحر في علوم الشريعة قاده هذا التبحر إلى مجاهدة نفسه وسلوك طريق التصوف ، وسار في الطريق أولاً من غير شيخ يهديه ، وكان يطالع كتب المتصوفة من مثل رسالة القشيري وقوت القلوب لأبي طالب المكي والإحياء للغزالي ، ويقول إن من جملة ما جاهد به نفسه حينئذ أنه كان يجعل حبلاً في سقف خلوته محمراً على عنقه إذا جلس ولا يصل إلى الأرض لو اضطجع . فكان يجعله في عنقه من العشاء إلى الفجر . وظل على ذلك سنين ! يقول :

« ولم يكن لي بحمد الله علاقة دنيوية تعوقني عن المجاهدة . . وكانت القناعة من الدنيا باليسير سداً أي ولحمتي ، فأغتنني بحمد الله عن وقوعي في الدل لأحد من أبناء الدنيا ، ولم يقع لي أنني باشرت حرفة ولا وظيفة لها معلوم دنيوي منذ بلغت . ولم يزل الحق تعالى يرزقني من حيث لا أحسب إلى وقتي هذا . وعرضوا "الولاية" على الألف دينار وأكثر فردتها ولم أقبل منها شيئاً ، وكان المباشرون والتجار يأتونني بالذهب والفضة ، فأنثرهما في صحن جامع الغمري !

”الجامع الذى كان يتنسك فيه“ فيلتقطهما المجاورون . وتركت أكل لذىذاطعام ،
ولبست الخيش والرقعات من شراميط الكيان نحو سستين ، وأكلت التراب لما
ققدت الحلال نحو شهرين ! . . وضافت على الأرض كلها ونفرت من الناس
ونفروا منى . وكنت أقيم فى المساجد المهجورة والأبراج الخراب مدة طويلة . .
وكنت أطوى الثلاثة الأيام وأكثر ، ثم أفطر على نحو أوقية من الخبز من غير
زيادة . وضعفت بشرى . وقويت روحانىتى ، حتى كنت أصعد بالهمة فى
الهواء إلى الصارى المنصوب على صحن جامع الغمرى ! فأجلس عليه فى الليل
والناس نائمون . ثم إذا نزلت من السلم إلى الجامع أنزل بجهد وتعب لغلبة
روحانىتى وطاهاها الصعود إلى عالمها ، فإنه لا يثقل الإنسان فى الأرض إلا كثرة
الشهوات . . ولما غلب على طلب العزلة عن الناس تنكرت منى جميع قلوب
أصحابى ، ونفروا منى . حتى كأنهم لا يعرفونى من ضيق وقى عن مباسطهم
بالكلام اللغو وعدم المحالسة . . وكنت لا أكل قط طعام فقير ، لا كسب له ،
من المتعبدین فى الزوايا . من غير كبير اشتغال ، خشية أن يكون ممن يأكل
بدينه وهو لا يشعر ، وكذلك كنت لا أكل طعام قاض ولو كان من أهل
الدين لما عساه أن يقع فيه عند الحاجة من قبول هدايا الناس . . ثم طويت عن
طعام جميع الناس فلا أكل إلا عند أوائل درجة الاضطراب ، وذلك حين لا تجد
أمعائى شيئاً تشتغل به ، فيلذع بعضها بعضاً . وكنت إذا افتتحت مجلس الذكر
بعد العشاء لا أختمه إلا عند طلوع الفجر ، ثم أصلى الصبح ، وأذكر ” الله “
إلى ضحوه النهار . ثم أصلى الضحى ، وأذكر حتى يدخل وقت الظهر فأصلى
الظهر . ثم أذكر إلى العصر ومن صلاة العصر إلى المغرب ومن صلاة المغرب إلى
العشاء وهكذا . ومكنت على ذلك نحو سنة . وكنت كثيراً ما أصلى برُبْع القرآن
بين المغرب والعشاء ، ثم أهجد بياقيه ، فأختمه قبل الفجر . وربما صليت
بالقرآن كله فى ركعة ! . وكان نوى غلبة تخطف رأسى خطفة بعد خطفة وخفقة
بعد خفقة . وكثيراً ما يغلب على النوم فأضرب أفخاذى بالسوط . . ولا شك

أن وقوف الحب بين يدي الله عز وجل في الظلام مع تألم جسمه بالضرب أحسن عنده من نومه عن ربه عز وجل حال تجليه .

ويذكر الشعراني بعد وصفه لما أخذ به نفسه من عناء شاق في أول سلوكه للطريق أنه وجد في نفسه ارتياحاً للاجتماع بمن سلك هذا الطريق قبله . فاجتمع بخلائق منهم لا تحصى . وأهم من اجتمع بهم ثلاثة على المرصني ومحمد الشناوي وعلى الخواص . ولزم الأخير ، وأذاقه كثيراً من حلاوة الطريق وأحواله . ودخل به في مجاهداته ومناجاته .

وتتعاقب أبواب الكتاب الذي يقع في مجلدين ضخمين شارحة مناقب الشعراني وفضائله وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على الزهد في الدنيا وطيباتها والتوكل على الله مع الصلاة . والتسبيح ، وتلاوة القرآن الكريم . ويعرفنا في أثناء ذلك بزوايته وكثرة المريدين له وما كان يأخذهم به من آداب . ويبسط أمامنا كل سيرته في صلته بالحكام والعلماء والمتصوفة وعامة المصريين من الفلاحين وغيرهم .

ويمزج الشعراني فضائله بفضائل المتصوفة من شيوخه ومن سبقهم ، حتى ليتحول الكتاب إلى بحث واسع في مناقب هذه الطائفة . وقد حمل حلة شعواء على العلوم الفلسفية ، وفَصَّلَ علوم التصوف الوهية على علوم الشريعة الكسبية ! ولا يترك واردة ولا شاردة في حياته الشخصية إلا ويقصها ، حتى معاملته لزوجته وخادمه ، وهو يقص ذلك في بساطة وسداجة .

وتتجلى هذه البساطة أيضاً فيما يرويه من مكاشفات المتصوفة ومشاهداتهم ، وما يقصه من ذلك عن نفسه وأنه رُفِعَ عنه الحجاب ! ويقول إن ما يجري على يديه من كرامات لم يقصده ، وإنما أجراه الله جل وعز وحده . ويعرض طائفة من رؤاه ، ويقول إن الله شرفه برؤياه مرتين وأنه اجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم وبعبسى وبالحضر وبالقبط عليهم السلام مراراً . ويصف كثيراً من

الخوارق التي شاهدها والتي سمع بها عن الصالحين قبله ، ويكثر من خوارق
 أستاذه على الخواص والشيخ المتبولى . وكثير منها يمكن تعليقه ، وكثير يستعصى
 على التعليل . والكتاب بذلك كله ترجمة شخصية وافية لسيرة الشعراني وسلوكه
 وكل ما أخذ به نفسه من أفعال وأقوال .

الفصل الرابع

تراجم سياسية

١

رجال السياسة يكتبون مذكراتهم

لعل أقدم صورة لهذه المذكرات السياسية والحربية ما كان يقصه أبطال العرب في الجاهلية والفتوح الإسلامية عن مغامراتهم وما قاموا به من بطولة خلال المعارك والوقائع المختلفة . وقد احتفظت كتب التاريخ وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بكثير من هذا القصص ، حيث نجد الرواة يروونه مباشرة عن أصحابه واصفين أحوالهم وأحداثهم الحربية .

وأخذ العرب منذ العصر العباسي يسجلون هذا القصص وما يتضمن من أخبار ، كما أخذوا يكتبون التاريخ : تاريخهم وتاريخ الأمم من حولهم . وعُنُوا عناية واسعة بدولهم ونشأتها وما مر بها من أحداث ، وكانوا يستمرون بتاريخهم إلى عصورهم ، فيكتبون عنها كتابة المشاهد الذي لا يترك شاردة إلا يسجلها تسجيلا دقيقاً ، وكأنهم يجهرونهم تحول إلى آلات رصد كبيرة . وهي آلات دقيقة ، قلما أصابها وهن أو ضعف بسبب عقيدة . وكل من يقرأ في الطبرى ومسكويه والبلاذرى واليعقوبى والمسعودى وابن الأثير وابن حبان وابن تغرى بردى وابن الخطيب وابن خلدون يكبر مؤرخى العرب ، ويشهد بسلامة حاستهم التاريخية ، فقد أودعوا كتبهم التاريخ السياسى العربى بكل حقائقه ووقائعه .

ولم يكن رجال السياسة في أول الأمر يعنون بكتابة مذكراتهم عن الأحداث السياسية والحربية التي اشتركوا فيها أو كانوا سبباً فعلياً من أسبابها ، مكتفين بما يكتبه معاصروهم من المؤرخين في إنصاف وعدالة تامة في الحكم . غير أننا لا نصل إلى القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى نجد بعض السياسيين يكتبون مذكراتهم ، وكأنهم يريدون أن يضعوا تحت أعين المؤرخين الأحداث كما شاهدوها وبمقدار ما تدخلوا فيها ليكون حكمهم أكيداً وأوثق .

ومن أوائل من عزا بذلك المؤيد في الدين داعي دعاة الفاطميين أو زعيم هؤلاء الدعاة المتوفي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٨ م واسمه هبة الله بن داود بن موسى ، بدأ دعوته لهم في مسقط رأسه « شيراز » إحدى بلدان فارس ، وما زال يعلو في رتبته عندهم ، حتى جعلوه زعيم دُعائهم .

وهو في مذكراته التي تسمى « سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة » يقص علينا مغامراته في سبيل الدعوة للفاطميين خلفاء مصر المشهورين ، لا في بلدانهم التي كانت تستظل بحكمهم ، وإنما في شيراز وبلاد فارس ، ثم في أعلى الشام والموصل والعراق . والكتاب بذلك ليس سيرة كاملة له ، وإنما هو مذكرات عن جهوده السياسية في حقبة من حياته امتدت من سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ إلى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م أما حياته قبل هذه الحقبة وبعدها فلم يعن بها أي عناية .

ونراه يذكر لنا في مقدمة السيرة بأنه إنما يكتبها ليوقف الناس على ما كان من جهوده في إدخال أبي كاليجار البويهى ملك فارس وهمدان في العقيدة الفاطمية الشيعية ، وما سبق ذلك ولحقه من قيام فن ضده هناك ، فقد أوجز العلماء والقضاة صدر السلطان عليه ، وبعد محن رضى عنه وقربه منه لما رأى من دعوته في قلوب « الديلم » وهم أهم جنده ، ولما أظهر من مهارة وتفوق في مناظرته لبعض علماء أهل السنة يقول :

« فسكن جأشُ الملك واطمأن قلبه ، وقال : إني أسلمتُ نفسي وديني

إليك ، وإننى راض بجملة ما أنت عليه ، فاستقر الأمر على أن أجتمع به كل ليلة جمعة للمذاكرة والمفاتحة ، فكنت كل ليلة جمعة أمكث عنده إلى أن يمضى هزيع من الليل ، وهو يسألنى عن جميع ما يهيجس فى نفسه ، وكنت أجيب عنه جواباً يظهر أكثره تباشير الفرح فى وجهه ، وأسأله كيف وقع هذا الجواب منك ، فرجما حرّك رأسه يعنى أنه جيد . فلا أرضى دون أن أقرره بلسانه أنه ما دخل فى مسامعه مثله . قصداً منى لتندمه على فترّطاته ، وإقامة الحجة عليه بكون الحق فيما كان يحسبه ضلالا والرشد فيما كان يظنه غيياً . وكان بناء المجالس التى تعقد بحضرته فى ليالى الجمعات على أن يُستدأ بقراءة شيء من قوارع القرآن : ويثنى بباب من كتاب الدعائم ” أحد كتب الدعوة “ ويثلث بأن يسأل عما يريد فأجيبه عنه . وأختتم بالتحميد والخطبة لمولانا الإمام ” المستنصر الفاطمى الخليفة بمصر إذ ذاك “ خلد الله ملكه فى ولده من بعده : ثم أنصرفت إلى منزلى .

وظل الأمر بينه وبين أبى كاليجار على هذه السيرة ، حتى ذاع وانتشر بين الرعية أن السلطان دخل فى الدعوة الفاطمية فغضب أهل السنة ، وغضب معهم الخليفة العباسى ، وهدده أن يستعين ضده بالسلجوقيين أصحاب آسيا الصغرى ، وكان سلطانهم يمتد إلى الموصل ، ويوشك أن يقضى على البويهيين ، فخشى أبو كاليجار مغبة اندفاعه ، وأوحى إلى المؤيد فى الدين أن يفر بنفسه ويخرج من دياره سنة ٤٣٨ هـ / ١٠٤٦ م .

ويصل المؤيد إلى مصر بعد مشقات ومعاناة ، فلا يجد ما كان يظنه من الترحيب به ، بل تزور عنه الوجوه ، يقول : « ولا وصلت بالحضرة الشريفة .. وكنت استصحبته إليها من البضاعة ما كانت تحدثنى نفسى أننى به أفلح .. ومنه أطأ فوق النجوم بقدمى لكون متجربى فيها ربيعاً وسعي نجيحاً .. فكشف لى الزمان عن كون البضاعة التى كان رجائى فيها هذا الرجاء باثرة كاسدة مسترذلة مستدلّة ، فأسقط فى يدى وتمي على طريق رشدى . »

ويقصد المؤيد ببضاعته جهوده فى الدعوة وما صنعه ضد العباسيين فى فارس

وفى أثناء طريقه وكيف استمال أبا كاليجار إلى المستنصر وأدخله فى طاعته. وكانت مصر والدعوة الفاطمية فيها حينئذ يعانيان من فساد الحكم ، وكان الخليفة العويبة فى أيدى وزرائه ، وكانت أمه ووكلاؤها يستأثرون بالسلطان من دونه ، ويقص علينا ذلك كله المؤيد ، حتى ليقول : « لا خير من المقام على باب من يكون محجوراً عليه ، ويكون مقاليد أموره بيدى غيره لا بيديه » .

ويترك المؤيد باب الخليفة مؤقتاً ، ولكن لا يخرج من الدعوة ، بل يعمل فيها ثانية ، وليشارك فى مؤامرة كبرى ضد الخليفة العباسى ، إذ يلحق بالساسيرى فى العراق ، وما يزال يؤلب الإمارات فى الشام والموصل ، محاولاً إخراجها من الدعوة العباسية إلى الدعوة الفاطمية . ويظل فى ذلك حتى سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م فيعود إلى مصر ، ويتم الساسيرى المؤامرة ، فيستولى على بغداد ويخلع الخليفة العباسى القائم بأمر الله ويخطب للمستنصر بإمرة المؤمنين على منابر العراق سنة . ولكن المستنصر قعد عن نصرته . فلم تمكث دعوة الساسيرى طويلاً بل سرعان ما قضى عليها السلاجقيون .

وهذه السيرة أو هذه المذكرات طريقة لأنها ترينا كيف كان يعمل دعاة الفاطميين سرّاً . وكيف كانوا يحركون المؤامرات فى سبيل دعوتهم ، وقد كشفت لنا عن جميع المقدمات التى سبقت استيلاء الساسيرى على بغداد وكيف قُطعت الدعوة العباسية لمدة عام على منابر العراق . وكل ذلك وثائق تاريخية جلية . وهى تقع فى نحو مائة وثمانين صحيفة من القطع الكبير . وليس هنا مكان تفصيل ما اشتملت عليه هذه الوثائق من العقائد الفاطمية ، وقيمتها فى هذا الجانب كبيرة . ومن أهم المذكرات السياسية التى كتبت فى هذا القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كتاب « التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة » ألفه عبد الله بن بلقين آخر أمراء بنى زيرى على هذه البلدة ، ومعروف أن المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين نخلعوه من عرشه سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ونفوه إلى المغرب فعاش فى آغمات ، وعكف على تأليف هذا الكتاب . ولم يخلعه

المربطون وحده ، بل خلعوا جميع أمراء الطوائف وملوكهم ما عدا بني هود في سرقسطة . وبذلك دخلت الأندلس في حوزتهم وأصبحت تابعة لهم . وليلادهم وسلطانهم في المغرب مدة خمسين عاماً تقريباً ، حتى إذا غلبت دولة الموحدين عليهم تحولت إليهم الأندلس بجناتها وبلدانها .

وبنو زيرى آباء عبد الله بربر من صنهاجة بالمغرب ، وهم مثل غيرهم من أمراء الطوائف ، قاموا على أنقاض الدولة الأموية ، وأسسوا لهم إمارة في غرناطة ، توارثها الأبناء عن الآباء طوال القرن الخامس الهجرى ، واستطاعوا أن يضموا إليهم مالقة . واعتلى عبد الله بن بلقين عرشها سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣ م بينما اعتلى أخوه تميم عرش مالقة .

وعُرفت مدة أمراء الطوائف بكثرة الفتن الداخلية وانقراض الأمراء بعضهم على بعض . وانقراض ولائهم عليهم ، وكثرة حروبهم ومناوشاتهم مع جيرانهم من المسيحيين . وكان ألفونس السادس لهم بالرصاد ، واستطاع أن يفرض إتاوة على كثيرين منهم . مثل عبد الله بن بلقين والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، واستولى على طليطلة من بني دى النون . واضطر أمراء الطوائف تحت ضغطه أن يستغيثوا بـيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب ، وأغاثهم يوسف ، وأوقع بألفونس هزيمة منكرة في « الزلاقة » وتطورت الحوادث ، ورأى يوسف من الضرورى الاستيلاء على هذه الإمارات حتى تقف البلاد صفّاً واحداً أمام الفرنج وكان ذلك تدبيراً سديداً . ولولاه لخرج العرب من الأندلس مبكرين .

وعبد الله بن بلقين في كتابه أو مذكراته يسجل تاريخ أسرته من بني زيرى تاريخاً دقيقاً . وهو تاريخ سياسى مليء بالملاحظات الطريفة ، عن هذه الحقبة من تاريخ الأندلس ، فقد عرض بالتفصيل تاريخ دولتهم وعلاقاتها بجيرانها من الأندلسيين والمسيحيين في السلم والحرب .

وأكثر الكتاب ترجمة سياسية له ولحكمه ، فهو بذلك من كتب التراجم الذاتية ، وقد تحرّى فيه الصدق عن نفسه وعن جيرانه ، ووصف وصفاً مسهباً ما لقي

من مشكلات في إمارته وما دُبِّرَ ضده من ثورات وما دخل فيه مع المسلمين والمسيحيين من حروب ومعاهدات ومناقضات . وهو في أثناء ذلك يعرض علينا مسرح الأندلس بكل ما كان فيه من صور انحلال سياسى واجتماعى هيأت لاستعلاء كامنة ألفونس السادس في أول الأمر على من يجاوره من الأمراء والمسلمين . وأعدت ثانية لاستيلاء يوسف بن تاشفين على ولايات هؤلاء الأمراء وإنهاء عهدهم بالأندلس .

وفي الكتاب مادة وفيرة لمن يريدون أن يؤرخوا عصر أمراء الطوائف تاريخاً صحيحاً وثيقاً ، وهو في حقيقته مجموعة من الوثائق النفسية عن هذه الحقبة . بدأه بفصل عن القواعد التي ينبغي على المؤلف اتباعها في تأليفه ، وجعل على رأسها بجانب الهوى وابتغاء الصواب والحقيقة ، وأعلن أنه لن يعنى بسجع كلامه وحلاه اللفظية ، حتى لا يجور اللفظ والسجع على المعنى . ثم استطرد إلى بيان حقيقة الإسلام وقصور القياس دون عون من الوحي ، وتحدث عن ضرورة التعليم والتجربة . وقال إنه حفظ القرآن وألم بصنوف من الآداب ، ثم تحول به جده إلى أمور السياسة ، فوقفه على وجوها ومرنه على جميع أعمالها ، حتى يحسن فيما بعد تدبير شئون مملكته ، وكان أبوه مرشحاً من قبله لولاية العهد . ولكن المنية اخترمته ، فنقل جده ولاية العهد إليه ، وعنى بتربيته السياسية عناية شديدة .

ويبين لنا عبد الله صعوبة الإنصاف التاريخي وأن الناس لا يجمعون على مدح أحد ولا ذمه ، فريضاً العامة لا يدرك ، ولما كان الوالى على شئون الناس يحكم فيما بينهم كان من يحكم له يخرج راضياً ، ومن يحكم عليه يخرج ساخطاً . ومن هنا لا تتفق العامة على مدح شخص . وواجب على المؤرخ أن يميز الأخبار وأن لا يأخذ بكل ما يسمعه من الناس .

ونحن لا نمضى في قراءة الكتاب حتى نعجب بشخصية هذا المؤلف . إذ حاول أن يتخلص من كل هوى وعصبية : ليسجل لنا تاريخ بلاده وإمارته أهله وإمارته هو نفسه تسجيلاً مستبصراً فيه ، مبتغياً الحق ما أمكنه . وحاول أن

يبرر سياسته في مراضاة ألفونس ودفع الإتاوة إليه ، وهو حتى في هذا التبرير لا يتحيز ، وإنما يعرض الحوادث بجميع تفاصيلها لتحكم . وأنت دائماً تحكم له بأنه كان حازماً في سياسته ، وأن ما صنعه كان الوجه الذي ينبغي أن يختاره العاقل الحصيف .

ويعرض علينا كل ما كان من مؤامرات وخيانات بين أمراء الطوائف وكيف انتقضت كلمتهم أمام ألفونس ، حتى أصبحوا مرعى خصباً له ، وكان قد ففر فاه ، وابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وهو على وشك أن يبتلع بقية الإمارات . وأسهم عبد الله في موقعة الزلاقة ، ووصف لنا نزول المرابطين الأندلس بدعوة من أمرائها ، كما وصف لنا كل الظروف التي أودت بملكه وملك من حوله من الأندلسيين .

والحق أن هذه المذكرات مجموعة من الأضواء النفاذة سلطت على عصر أمراء الطوائف بالأندلس ، فإذا هي تبدد كل ظلام فيه . وإن من الواجب أن يعيد المؤرخون كتابة هذا العصر على هدى تلك المذكرات . وليس هنا مجال الحديث عما تضيفه هذه المذكرات إلى الكتب التاريخية من معلومات جديدة ، ويكفي أن كاتبها كان من أمراء العصر الذين شاركوا في أحداثه ، وقد رأى تحت عينه لمدة نحو عشرين عاماً سفينة هذه الإمارات تتجاذبها العواصف من كل جانب ، من الداخل والخارج ، حتى هيا القدر لها رباناً جديداً فانضوت تحت لوائه ، وأمكن لمن تحملهم أن يظلوا هناك قروناً متطاولة .

ونمضي إلى القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) فلتلق بعمرارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م وأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . ولأولهما كتاب يسمى «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» . وعنوان الكتاب لا يدل على حقيقته ، فهو ليس طائفة من الأخبار عن هؤلاء الوزراء ، وإنما هو في أخباره هو نفسه ، وبعبارة أدق هو ترجمة ذاتية له . وهي ترجمة سياسية .

ويعرفنا عمارة في أوائل كتابه بمولده ونشأته . فهو من تهامة اليمن ، من بلدة يقال لها مُرْطَان ، وهو قحطاني مَذْحِجِي من سعد العشيرة ، كان آبائوه سادة قومه ، وكان منهم العلماء المصنفون . ولد سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م ولما شب أرسله أبوه إلى زَبِيد ليتفقه في دينه . ومن ثم تعلق بالتجارة ، وشدا الشعر ، واتصل بملوك اليمن وآل زريع خاصة . وحج سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م فبعث به صاحب مكة رسولاً إلى الفائز خليفة مصر الفاطمي حينئذ . فقدمها سنة ٥٥٠ هـ . ١١٥٥ م وكان الوزير بها طلائع بن رُزَيْك ، فاستقبله في قاعة الذهب بقصر الخليفة ، ووقف عمارة بين يديه فأنشده إحدى مدائحه فيه وفي الخليفة . وإفيضت عليه الخلع ، وناولته طلائع خمسمائة دينار ، وأرسلت إليه سيدة القصر بنت الخليفة السابق (الحافظ) خمسمائة دينار أخرى ، وتهادته أمراء الدولة .

ويتحول الكتاب من هذا الموضوع إلى مذكرات سياسية قيمة ، فيصور لنا أحوال مصر ومجالسها الأدبية ولا يلبث أن يعود إلى مكة ، فمسقط رأسه ، فزبيد ، ثم يحج في سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م فيرسل به صاحب مكة إلى مصر في سفارة ثانية ، ويحتفل به المصريون وعلى رأسهم طلائع وتغدق عليه الجوائز والعطايا لإغداقاً . ويستقر عمارة بمصر ، ويُقْتَلُ وزيرها طلائع ، وتكون المنافسة الحادة بين ضرغام وشاور ، ويستنجد العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بنور الدين صاحب الشام ، فيرسل إليه بأسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين ، وتتطور الأمور ويصبح أسد الدين شيركوه وزيراً للخليفة ، ويعاجله الموت ، فيتولى الوزارة من بعده صلاح الدين ، ويقضى على الخلافة الفاطمية قضاء مبرماً . ويعود بمصر إلى الخلافة العباسية وعمارة يتحدث عن نفسه وعن علاقته بهؤلاء الوزراء جميعاً وبأسد الدين شيركوه وصلاح الدين . ويلم بكثير من الحوادث ، مضمناً كتابه ما نظمه من قصائد في هذا الوزير أوداك أو في هذا الأمير أو ذاك .

وكان عمارة قد تحول شيعياً . فلما أزيلت الدولة الفاطمية نعاها في غير قصيدة . وعرف فيه صلاح الدين ووزيره القاضي الفاضل هذه العصبية ،

فطاولاه ، حتى اشترك في مؤامرة يريد بها قلب نظام الحكم والرجوع بمصر إلى الدعوة الفاطمية ، واكتشفت المؤامرة ، فسلب في جماعة من أصحابه ولم تصده مدائحه الكاذبة في صلاح الدين ورفقائه .

٢

أسامة بن منقذ

أحد أبطال المسلمين في الحروب الصليبية ببلاده في الشام . وقد زار مصر مشارك في أحداثها السياسية ، ثم زار الموصل ، وتولى أعمالاً كثيرة لأمرأ مختلفين كان آخرهم صلاح الدين الأيوبي . وامتدت حياته حقبة متطاولة من سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م إلى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م . وهو كالنحلة لا يقر ولا يسكن . يشترك في حرب الصليبيين ويخوض معهم معارك حامية . وحين نضع الحرب أوزارها يكون له منهم الصديق . ويعاشرهم . ويرقب حياتهم ، ويسجل ملاحظات مختلفة عن معاشهم ونظمهم ومعارفهم .

كان أباه أمراء شيزر ، وهي حصن حصين ، أقامته الطبيعة على ضفاف العاصي بالقرب من حماة في أعلى الشام ، وكم تكسرت تحت عينه على هذا الحصن رماح الروم والصليبيين والإسماعيلية الحشاشين وبعض العرب من بني كلاب في حلب . وكان عمه أمير الحصن . تنازل عنه أبوه . وكان أكبر منه سنًا : ولم يكن له ولد في أول الأمر . فاشترك مع أبيه في تربيته والعناية به . حتى يكون خلفاً صالحاً له ، وحفظ القرآن الكريم . وتعلم علوم العربية وقرأ في آدابها . وقد اهتم بتربيته الحربية وتمرينه على صيد الحيوان الأليف والوحشي حتى يحسن صيد الصليبيين وغيرهم من خصومه الآدميين . وتصادف أن رزق عمه ولداً وأحسن أسامة منه الغيرة والوحشة . فترك مسقط رأسه حول

سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥ م وتقلب في البلاد يخاطر ويغامر ، لا يستقر به ميدان ولا بلدة من البلدان .

أسامة إذن شخصية فذة من شخصيات الحروب الصليبية ، وكان شاعراً أديباً ، كما كان فارساً رهيماً ، فلقى الاحترام والتبجيل من المسلمين والصليبيين على السواء ، وقد حاول بأخـرة من أيامه أن يكتب حياته وما لقي فيها من عبر الحوادث ، فكتب كتابه « الاعتبار » وهو مذكرات بديعة ؛ تصور لنا القروسية العربية زمن الصليبيين ، كما تصور حياة المسلمين لعصره وحياة الصليبيين أنفسهم ، وهو تصوير أمين دقيق .

وإذا كان هناك شيء يؤخذ على هذه المذكرات فهو أنها لم تكتب بشكل منطقي منسق على الزمن وتطوره وامتداده ، وإنما كتبت في شكل أخبار من هنا وهناك . ومع ذلك فإنها تلم بحياته منذ صباه وحياة أبيه وعمه وكل ما كان بيئته في نشأته ، كما تلم برحلاته ، وتنقلاته وحروبه . وهي ترجمة كاملة له . ولكنها لم ترتب ترتيباً دقيقاً . وهو يستهل الكتاب بمعركة شهدا بين المسلمين والصليبيين وهي معركة قنسرين ثم يحدثنا عن محاولة الروم والفرنجة حصار شيزر ، وينتقل سريعاً إلى إقامته في دمشق بعد فراقه لعمه ، وقد أقام فيها ثمانى سنوات وشهد عدة حروب ، ثم فارقها إلى مصر ، فأقام بها عشر سنوات ، وكانت حينئذ مسرحاً للفن والمكايد والمفاسد ، وقد استقبله الخليفة الحافظ استقبالا حسناً ، وأكرم وفادته يقول :

« كان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ فأبرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ، ودفع لي تسخت ثياب ومائة دينار وخولني دخول الحمام ، وأنزلني في دار من دور الأفضـل بن أمير الجيوش (بدر الجمالي) في غاية الإحـسن ، وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة وآلتها من النحاس . . وأقامت بها مدة إقامتي في إكرام واحترام وإنعام متواصل . » ولم يلبث الحافظ أن توفي وخلفه ابنه الظاهر ، فوالى أسامة ببرّه وإنعامه .

ويحدثنا أسامة عن اختلال الأمور بمصر لابين الجنود فحسب . بل أيضاً بين الوزراء ، كما يحدثنا عن كثرة الخسومات والمؤامرات التي كانت تدبّر في هذا البلاط مما لم يجد له مثيلاً في العالم الإسلامي . وبينما كان الظاهر غارقاً في ملذاته كان وزيره الكردى العادل بن السار غارقاً في دسائسه ومظالمه . وقد اغتاله حفيد زوجته نصر بن العباس ، وتولى الوزارة بعده أبوه ، وحاول الابن أن يقتله هو الآخر بتحريض الخليفة ، ولم يلبث أن قتل الخليفة نفسه سرّاً . وأقام العباس الفائز مكانه واتهم فيه إخوته . وتقوم مؤامرات مسلحة ، ويفر عباس . ويفر معه أسامة إلى الشام . ويقتل عباس في الطريق ، يقتله الصليبيون . ويخرج أسامة ، ويصل بعد أهوال إلى دمشق ، ويخدم نور الدين .

وهذه القطعة من مذكرات أسامة وثيقة مهمة في تاريخ هذه الحقبة بمصر وما كان يجلبها من سواد ، ونراها يتلوها بقطعة أخرى عن معاركه تحت لواء نور الدين مع الفرنج وخصومه من أمراء الشام . والكتاب من هذه الناحية خطير ، لأنه يصور انحلال الدول والإمارات الإسلامية في الشرق ، بينما ينزل الصليبيون بالشام ويكوّنون لهم إمارات فيه . ومصر من الجنوب مشغولة بفتنها ودسائس حكامها ومؤامراتهم ، وإمارات الشام والموصل في حروب مستمرة لأمع الصليبيين فحسب ، بل مع أبناء العمومة والإخوة في الدين ، وأبواق «الإسبانية» وغيرهم من فرق الصليبيين مثل الدّاوية ترن في أسماعهم . ولولا أن هبّ نور الدين بحمي حما الشام لوقعت البلاد الإسلامية في الشرق كسيرة في أيديهم . ومثدّ بصره ، فأرسل أسد الدين شيركوه إلى مصر واستطاع صلاح الدين أن يستخلصها من الفاطميين وما كانت ترزح فيه من فساد في الحكم وانحلال . ولم يلبث أن هزم الصليبيين واستردّ منهم أكبر القلاع والحصون . وأزال إمارتهم في بيت المقدس . واسترده للعرب والإسلام .

ويفيض أسامة في وصف المعارك مع الصليبيين . ويعود بنا إلى أيام شبابه . ويصبح الحديث ذا شجون . تارة يتحدث عن بعض الحروب في شيزر وغيرها

من ثغور الشام وما أبلى فيها هو وأبوه وأهله ، وتارة يتحدث عن بطولة النساء وما كُنَّ يظهرن من ضروب البسالة والشجاعة، وتحدث في أثناء ذلك عن تعلقه بالصيد، وقد أفرد له فصلاً خاصاً في أواخر كتابه، وقفنا فيه على أدواته لعصره، ومن طريف ملاحظاته أن السباع يكون منها الشجاع والجبان وأن الحبّارى إذا رأت الصقر استقبلته بذنبها ، فإذا دنا منها سلحت عليه ، فبلى ريشه وملاّت عينيه وطار ، ويقول إن الثمر يستطيع أن يقفز إلى نحو أربعين ذراعاً .

ومن أطرف ما كتبه في مذكراته حديثه عن الفرنج وعاداتهم ، وقد كانوا حين يكتفون عن الحرب تقوم بينهم وبين العرب علاقات فيها شيء من حسن الجوار . وصورهم أسامة بأنهم « بهايم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » وكانت الحضارة الإسلامية فعلاً في هذا التاريخ تتفوق تفوقاً ظاهراً على حضارة الأوربيين ، ومن ثم لا يبالغ أسامة حين يقول عنهم إن « من هو قريب العهد منهم بالبلاد الإفرنجية أجنى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا ” سكنوا البلاد “ وعاشروا المسلمين » فقد كانوا في أثناء مقامهم يكتسبون غير قليل من المدنية الإسلامية والذوق العربي ، فتلين طباعهم وتهذب أخلاقهم .

ووقف أسامة عند طرقهم ونظمهم القضائية، فقال إنهم كانوا يعتمدون في محادثاتهم على المبارزة والرمي في الماء ، ويقول إنه لا عقل لهم ولا معرفة ، ومع ذلك يحدثنا عن انعقاد المودة بينه وبين بعض فرسانهم حتى كان يناديه بأخى ، وكانت الجنود الداوية تحترمه ، فكان إذا زار بيت المقدس يخلون له جانباً يصلى فيه . ويلاحظ أنه لا توجد عندهم غيرة على نساءهم ، يقول : « يكون الرجل منهم يمشى هو وامراته فيلقاه رجل آخر فيأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طوّلت عليه خلاّها مع المتحدث ومضى » . وبعد أن يقص أسامة طائفة من أخبارهم التي تدل دلالة واضحة على نضوب الغيرة على نساءهم . يعود فيقول : « انظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ، ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة ، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة

والأنفة من سوء الأحذوة ، .

وأتى أسامة بتواذرتل على تأخرهم في الطب وأنهم كانوا حقاً متخلفين عن العرب تخلفاً ظاهراً في هذه الدورة من حياتهم . ومعروف أن المدنية الأوروبية التي تروعا الآن إنما تبدأ مع العصر الحديث ، أما في العصور الوسطى فكانت أوروبا فيها متخلفة ، وكانت تروعهم الحضارة الإسلامية ، ويقعدون منها مقعد التلامذة من أساتذتهم في الأندلس بقرطبة وطليلة وغرهما من الحواضر هناك . وفي الشام بيت المقدس وأنطاكية وغيرهما من البلدان الشامية ، وأيضاً في صقلية وغيرها من البلاد التي كان يرفرف عليها علم الإسلام والعروبة . ولعل من أكبر الدلالة على ذلك هذه النادرة التي يقصها أسامة عن أطباهم ، يقول :

« ومن عجيب طبيهم أن صاحب المنيطرة " في أعلى الشام " كتب إلى عمي " أمير شيزر " يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مَرَضِي من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ما داويت المَرَضِي ؟ قال : أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دُمْلَة وامرأة قد لحقها نشاف " لعله جفاف لبنها في الرضاعة " فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت اللدلة وصلحت ، وحيت المرأة ورطب مزاجها ، فجاءهم طبيب إفرنجى ، فقال ضم : هذا ما يعرف شيء " فكيف " يداويهم ، وقال للفارس : أيما أحب إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة فقال : أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً : فحضر الناس والفأس وأنا حاضر . فحط ساقه على قرمة " قطعة كبيرة " خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة : اقطعها ، فضربه ، وأنا أراه ، ضربة واحدة ، فما انقطعت ، وضربه ضربة ثانية ، فسال مخ الساق ، ومات من ساعته . وأبصر المرأة . فقال : هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها : احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من ماكلهم : الثوم والخردل . فزاد بها النشاف . فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى ، وشق رأسها صلياً ، وسلخ وسطه ، حتى ظهر الترجمة الشخصية

عظم الرأس ، فحكه بالملح ، فأتت في وقتها . فقلت لهم : أبقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا لا . فبحثت وقد تعلمت من طيبهم ما لم أكن أعرفه ! « ولا يمضى أسامة بل يقف ليقص لنا مقدرة طبيب من أطبائهم ، فقد رمح حصان خازناً لبعض ملوكهم يسمى برنار ، يقول : « فعلت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً ، والجراح كلما ختم موضع فتح موضع وأنا أدعو بهلاكه ، فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنها المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق ، فختمت تلك الجراح وبريء وقام مثل الشيطان » . ولعل في رواية هذه القصة بجانب النادرة الأولى ما يدل على صدق أسامة فيما يروييه وأنه كان أميناً فيما يدكره من أخبار القوم . على أنه لا يلبث أن يروي لنا هذه النادرة عن صليبي منهم هو صاحب طبرية : فقد حدثه بقوله :

« كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فرض وأشرف على الموت : فجيئنا إلى قس كبير من قسوسنا ، فقلنا أتجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً ؟ قال : نعم . ومشى معنا ونحن نتحقق أنه إذا حطَّ يده عليه عوفى ، فلما رآه قال : أعطوني شمعاً . فأحضرنا له قليل شمع ، فليسنه وعمله مثل عقد الإصبع ، وجعل كل واحدة في جانب أنفه . فأت الفارس ، فقلنا له : قد مات : قال : نعم ، كان يتعذب ، فسددت أنفه ، حتى يموت ويستريح » .

وفي هذا كله ما يؤكد تأخر القوم بالقياس إلى معاصريهم من المسلمين والعرب ، ولعل ذلك ما كان يدفعهم دفعاً إلى هجر عاداتهم إلى العادات الشرقية ، حتى في الثياب والطعام : فقد روى أسامة عن بعضهم أنه كان لا يأكل الخنزير وكان يتخذ الطبائحات الشرقيات ولا يأكل إلا من طعامهم . ومعنى ذلك أنهم كانوا يتعلقون بالحياة الشرقية في المطعم والملبس ، كما كانوا يتعلقون بها في المسكن . فإذا كانوا قد غزوا بلادنا وفتحوا حيناً بعضها وأقاموا فيها فقد غزتهم هذه البلاد بمدنيتها وحضارتها . وكانوا لا يزالون جفاة خشنين وغلاظاً فظطين . ومن طريق ما يقصه أسامة سباق أقاموه في طبرية بين عجوزين ، يقول :

« حضرت بطبرية في عيد من أعيادهم وقد خرج الفرسان يلعبون بالرماح ، وقد خرج معهم عجوزان فانيتان أوقفوهما في رأس الميدان ، وتركوا في رأسه الآخر خنزيرا سَمَّطوه وطرحوه على صخرة . وسابقوا بين العجوزين ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يشدون منها . والعجوزان تقومان وتقعان على كل خطوة ، وهم يضحكون ، حتى سبقت واحدة منهما ، فأخذت ذلك الخنزير في سبقتها . »

ويفرغ أسامة من حديثه عن الصليبيين ، ويأخذ في سرد طائفة من تجاربه واختباراته في شبابه مع التعرض لبعض الأحداث ، ثم يقفز إلى هرمه وشيخوخته ، ويوصي بأن ركوب الأخطار لا ينقص الأعمار . ويقول إن السنين أقعدته عن خدمة السلاطين ، ومع ذلك كان يراعى صلاح الدين ، ويسهب في مديحه وكيف جمع كلمة الإيمان ، وجمع عَسَدَةَ الصليبان ، ورفع علم العدل والإحسان ، ويقول إنه من إنعامه كل يوم في مزيد .

وبعامل الشيخوخة نجد أسامة يفرد فصلا في كتابه لأخبار الصالحين ، ويسرد بعض ما قرأه أو سمعه من قصص عن السابقين وبعض المعاصرين . ويعرض لبعض أدوية تشفى من الأمراض . ثم يفرد للصيد فصلا طويلا يتحدث عن آلاته وما شاهده في المصايد المختلفة ببلاده وفي مصر ، وهو فصل طريف إلى أبعد غاية . والحق أن الكتاب طريقة بدیعة لما يحوى من مذكرات سياسية وحربية واجتماعية عن عصره ، وهى مذكرات نفيسة ويزيد في نفاستها أن أكثر ما دُونَ بها مما خبره بنفسه ، وشاهده بعينه .

ابن خلدون

ونمضى بعد أسامة . ويدور بنا الزمن دورات ، حتى تلتقي بابن خلدون ، أكبر مؤرخي العصور الوسطى الأخيرة عند العرب ، فتجده يسجل حياته وأحداثها السياسية في تأليفه الذي سماه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » إذ تولى وظائف مختلفة في بلاد المغرب وخدم غير سلطان من سلاطينها ، ثم رحل إلى غرناطة في الأندلس فخدم سلطانها محمداً الخامس لمدة سنتين ، وأرسله في سفارة إلى يدرو في إشبيلية لغرض التعديل في شروط الصلح المعقودة بينهما . ثم ترك الأندلس إلى المغرب وشغل فيه وظائف مختلفة ، ولم يلبث أن اعتزل الوظيفة ، وأقام في قلعة ابن سلامة شرقي تلمسان في شمالي الجزائر ، ليكتب تاريخه المشهور . وفي عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م قصد إلى الحج ، ولكنه لم يتجه مباشرة إلى غايته ، فقد أقام في القاهرة ولزم التدريس في جامعها « الأزهر » ، وعينه السلطان برقوق قاضياً لقضاة المالكية ، وقد ولي هذا المنصب ست مرات ، إذ كان يُعزَلُ ، ثم يعود . وفي سنة ٨٠٣ هـ / ١٤٠٠ م رافق السلطان الناصر إلى دمشق في حملته على تيمورلنك ، والتقى بهذا الطاغية . وعاد إلى القاهرة ، فظل بها ، حتى توفي سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

فنحن إذن يلزاء شخصية سياسية كبيرة ، ومن هنا يكون لما يكتبه أهمية خطيرة في بيان الشؤون السياسية لدول المغرب ودول المشرق ، فقد تقلد المناصب الكبيرة هنا وهناك ، ورأى تحت عينه كل ما كان في هذه الدول من عوامل قوة أو انحلال وضعف . وأعانه ذلك على كتابة مؤلفه العظيم في التاريخ وقد قدّم له بمقدمته المشهورة ، وهي من أروع ما كتبه العرب في السياسة والاجتماع . ولد

بتونس سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م لأسرة من الأسر المشهورة التي نزحت عن الأندلس في عصر الموحدين ، وهي أسرة عربية الأصل ، فقد هاجر جدها الأعلى من اليمن إلى إشبيلية في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وفيها ازدهرت أسرته ، ونزح منها أحد فروعها إلى المغرب ، ومن هذا الفرع ابن خلدون ، وكان آباؤه على غراره يشتغلون بالسياسة والأدب .

ويستهل ابن خلدون مذكراته ببيان نسبه وأنه يرتفع إلى خالد أو خلدون الجحد الأعلى الذي نرح إلى الأندلس ، ويذكر بينهما عشرة آباء ، ويقول إنه من خضر موت - من عرب اليمن ، ويتحدث عن أسلافه بالأندلس وشأنهم في الأحداث المختلفة . ثم ينتقل بنا إلى أسلافه في إفريقية وما تولوا من أعمال في الدولة الحفصية . وقد استقر أبوه في تونس زاهداً في هذه الأعمال الإدارية ، ومنصرفاً إلى التدريس وأعمال البر .

ويفيض ابن خلدون في بيان نشأته وشيوخه الذين تلقى عنهم ضروب الثقافة المختلفة بتونس من حديث وقراءات ونحو وفقه وأدب وعلوم عقلية : ويسمى لنا أكثر ما قرأه عليهم من كتب المعقول والمنقول : ويذكر لنا أن السلطان أبا الحسن المريني قدم إلى تونس عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ومعه جيلته من العلماء ، فأخذ عنهم وأفاد منهم كثيراً . ثم يسترسل في الحديث عن هؤلاء العلماء استرسالاً يكشف لنا به الحركة العلمية لعصره في إفريقية كشفاً دقيقاً .

ولم يكن مثلاً أبوه زاهداً في الدنيا ووظائف الدولة . وأعاتته صلته بالعلماء والرجال البارزين في البلاط المريني على أن يشغل فيما بعد مناصب مختلفة . وقد عيّن وهو في سن العشرين كاتباً لسلطان تونس واختصه بكتابة العلامة ، وهي وضع « الحمد لله والشكر لله » بالقلم الغليظ مما بين البسمة وما بعدها من مخاطبة أو مرسوم : وكان يتولاها خيار الكتّاب للسلطان .

ونشبت فن وثورات في العاصمة ، فتركها إلى ابن مزني صاحب الزاب ، واستولى أبو عتّان المريني على تلمسان والبلدان الممتدة شرقاً إلى بجاية : فالتحق

بخدمته واشترك في حملاته الحربية ، وأعجب به ، فعينه في كتابته والتوقيع بين يديه سنة ٧٥٦ هـ وواصل دراسته على علماء عصره . ولم تجر الأمور على هواه فقد غضب عليه السلطان بعد عام واحد لما حصل بينه وبين صاحب بجاية من مداخلة هوّلها بعض حساده وقالوا إنه يريد أن يساعده لاسترجاع بلده ، فزج به في السجن مرتين ، وظل به إلى وفاة السلطان عام ٧٥٩ هـ إذ عفا عنه السلطان الجديد ، واستخدمه كاتباً بين يديه ، ثم عينه قاضياً للقضاة . وأحسن بدسائس جديدة تدبّر له ، فاستأذن في الرحيل إلى غرناطة ، حيث بنو الأحمر وأميرهم محمد الخامس ووزيرهم ابن الخطيب خاتمة أدباء الأندلس المشهور . وكان قد راسله ورحب بمقدمه . وقدم ابن خلدون سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م وظل ستين في هذا البلاط وأحسن بفتور المردة بينه وبين ابن الخطيب فعول على الرجوع إلى بلاده . ونزل بجاية واتخذها أميرها حاجباً له ، وتولى فيها منصبى الخطابة والتدريس . ولما استولى عليها أمير قسطنطينية في العام التالى رحل إلى بسكرة وراسل أمير تلمسان ووفد عليه ، فأكرمه ، وسرعان ما قلب الدهر ظهر مجنّه لهذا الأمير ، فاستولى على بلاده السلطان عبد العزيز المرينى ، والتحق ابن خلدون بخدمته . ويظل عنده حتى سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م فيرحل إلى الأندلس ثانية . ويجد وحشة من صاحب غرناطة ، ويجد ابن الخطيب مسجوناً . ويقتل . ويولى وجهه إلى إفريقية فيجد أمير تلمسان أبا هو قد استرد بلده من السلطان المرينى ، فيقيم عنده قليلا ، ويصمم على اعتزال السياسة ويعكف في قلعة ابن سلامة على كتابة تاريخه . ثم يتحول إلى تونس ومنها إلى القاهرة .

ولعل في هذا الخط السريع ما يدل على أهمية هذا الكتاب الذى ألفه ابن خلدون في بيان حياته ووظائفه في الدول المغربية ، فقد أمدنا بتفاصيل كثيرة عن الحياة السياسية في هذه الدول ، وكانت تمزقها الفتن والثورات والحروب . وكان دائماً لا يجد بأساً من التحول إلى الغالب . فهو يشغل اليوم مع هذا الأمير وغداً مع عدوه . وما لا شك فيه أنه لعب دوراً خطيراً في الشؤون السياسية المغربية ،

وأتاح له ذلك أن يطلع على أحوال الدول والأمم وأن يؤلف مقدمته الفلسفية لتاريخه، التي تمتاز بالحكم الصائب والنظر الدقيق الفاحص .

ويرحل ابن خلدون إلى الشرق ليؤدي فريضة الحج . ولكنه لا يواصل رحلته ، فقد مرّ بالقاهرة ، وأعجبه النشاط العلمي والأدبي فيها ، وكانت حينئذ كعبة العالم العربي ومفرع آماله . يهبط إليها العلماء والأدباء من آسيا فراراً من حملات التتار والصليبيين ومن إسبانيا فراراً من حملات المسيحيين في الشمال ، وقد وصفها على هذا النحو .

« انتقلت إلى القاهرة . فرأيت حضرة الدنيا وبستان العالم ومحشر الأمم ومدرج الدر من البشر وإيوان الإسلام وكرسى الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه . وتزهر الخوانق والمدارس بأفائه . وتضيء البدور والكواكب من علمائه . قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة ومدفع مياه السماء ، يستقيهم العسل والنهسل تشبّهه . ويخفي إليهم الثمرات والخيرات تشبّهه . ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة . وأسواقها تزخر بالنعيم » .

واشتغل ابن خلدون أول الأمر بالتدريس . واتصل بالسلطان برقوق فأبرّ لقاءه وأنس غربته وأجزل له في الجرايات والعطاء ، وعينه في سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م قاضياً لقضاة المالكية . والتمس منه أن يتوسط عند أبي العباس الحفصي في إرسال أهله وولده إليه . لكنهم غرقوا في الطريق ، فزهد في الدنيا وخرج إلى الحج عام ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م . وعاد فولى القضاء ثانية : وكان يتركه . ثم يستعيده ، كما كان يتولى الدروس والخوانق . وأصبح قريباً من السلطان برقوق ، فكان يستشير في كثير من شئونه . ولما تولى بعده السلطان الناصر قربه منه ، وصحبه معه في جملة قضائه حين توجه بحملته المشهورة إلى دمشق للقاء تيمورلنك ودفع جيوشه من التتار إلى وراء .

ونعى هناك إلى السلطان الناصر أن بعض الأمراء المنغمسين في الفتنة يخاولون الحرب إلى مصر للثورة بها . فرجع وراءهم خشية من انتقاض الناس ، وخلف

الكثير من أمرائه وقضااته ، وكان ابن خلدون في المختلفين . وسمع أن السلطان تيمورلنك يسأل عنه ، فلم يسعه إلا لقاءه . وأكرم وفادته عليه ، وأعطاه الأمان لأهل دمشق ، وأقام عنده خمسة وثلاثين يوماً يباكره ويراحه ، وعزم عليه تيمورلنك أن يبقى معه في معسكره ، ويعيش بقية حياته في رعايته . وهنا يستعمل ابن خلدون الحيلة ، فقد تحدث إليه حديثاً عذباً كله إطرأ وثناء وأنه لا يؤثر على البقاء عنده شيئاً في الدنيا . فأعجب به ، وأمر أن يظل في خدمته ، وصدع ابن خلدون لأمره مظهراً الرضا والفرح بذلك غير أنه استأذن في الرجوع إلى القاهرة ليعود بكتبه وأهله ، فأذن له ، فضى وهو لا يكاد يصدق بالنجاة من هذه الورطة . ويعود إلى منصبه في القضاء حتى يوافيه أجله سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .

وعلى هذا النحو أتيح لابن خلدون أن يرى أكثر العالم الإسلامي العربي بعينه ، وأن يشارك في شؤنه السياسية شرقاً وغرباً . وليس هذا الكتاب الذي ضمنه التعريف به وبرحلاته إلا مذكرات سياسية خطيرة تقفنا على أحوال البلدان التي ألم بها وكل ما كان يجري بها من شئون سياسية واجتماعية . وستظل هذه المذكرات أهم الوثائق التاريخية التي دُوِّنت عن الأندلس والمغرب ومصر والشام لبصره . وبها نختم التراجم السياسية ، إذ لم يؤلف بعدها ترجمة لها قيمتها ونظيرها في وصف العالم العربي وأحواله .

الفصل الخامس

تراجم حديثة

١

تراجم مختلفة

نهج المحدثون نهج قدامائنا في الترجمة لأنفسهم ، وقد اطلع من أتقن منهم اللغات الأجنبية على ما لدى الغرب من ترجمات شخصية . فكان القديم العربي والجديد الغربي باعثاً لهم على الترجمة لأنفسهم ، ولعل أهم من ترجموا لأنفسهم في القرن الماضي على مبارك ، فقد كتب في مؤلفه « الخطط التوفيقية » سيرة حياته ، واستخرجها منه الدكتور محمد دري الحكيم ونشرها مفردة . وهي سيرة طويلة تقع في نحو ستين صحيفة ، ألم فيها إلاماً دقيقاً بنشأته وتعلمه في مصر وفرنسا ، كما ألم بوظائفه وتقلباته في الحكومة وخارجها ، وما قام به من أعمال وإصلاحات في التعليم وغيره . وقد كتبها سنة ١٨٨٩ للميلاد أى قبيل وفاته بقليل : فهي سيرة كاملة .

ويعرفنا في أولها بقريته « برنبال الجديدة » التي تقع في الشمال الشرقي للدلتا على البحر الصغير بالقرب من المنصورة ، وكان بها أربع حارات ومسجد وكتّاب ومعملان لتفريخ الدجاج وأربعة أنوال يدوية للنسيج وكان لطار وآخر لصباغ ، وضريحان لوليّين وبعض صنّاع كنجار للسواقى ونوفى للمراكب . وفي هذه القرية ولد على مبارك سنة ١٢٣٩ هـ / ١٨٢٣ م الشيخ مبارك خطيب المسجد وإمامه ومأذون البلدة الذي يعقد عقود الزواج بها ، وبقي الناس في شئونهم الدينية .

ولما صَلَّيْبَ عودِه بعض الصلابة أرسله أبوه إلى كُتَّاب القرية ، وكان المقرئ فيه شيخاً ضريراً قاسياً يضرب الصغار ويعنف بهم ، مما كَرِهَ «على مبارك» في التعلم وحفظ القرآن . وحدث أن رُميت على أبيه وأسرته أرض ، عجزوا عن دفع ضرائبها للحاكم : فبيعت بها ثمنهم ، وسيموا العذاب على نحو ما هو مشهور عن الأسرة العلوية وحكمها لمصر في القرن الماضي . وتشتت أسرة على مبارك في البلاد ، ونزل أبوه بعرب في الشرقية يسمون « السماعنة » فاتخذوه شيخاً لهم وكفوه مئونته . ولما استقرت به النوى أرسل ابنه إلى كُتَّاب يعلم فيه شيخ يسمى أبا الخضر ، ولم تمض مدة طويلة بعلى حتى نفر من هذا الكُتَّاب كما نفر من كتاب بلدته السابق ، فإذا يصنع أبوه ؟ لقد رأى أن يلحقه بكتاب ممن يكتبون للناس في شؤونهم اليومية ، ولم يعجب ذلك علياً ، فطوَّف في البلاد القريبة ، ولقى كثيراً من صينوف المشقة ، وما زال على ذلك حتى اشتغل كاتباً صغيراً بين يدي «عنبر أفندي» مأمور زراعة انقطن بأبي كبير . وعجب على حين رآه أسود حبشياً ، وعرف عنه أنه تعلم بمدرسة « قصر العينى » فطمحت نفسه أن يلتحق بها ، وأن يصبح مثله من الحكام . وعرف فيما عرف أن هناك مفتشاً للحكومة يمر بمكاتب القرى ، يختار منها الطلاب النابهين ، فيلحقهم بالمدرسة المذكورة . فترك عمله ، والتحق بكُتَّاب : ومر المفتش بهذا الكتاب ، فأعجب به ، واختاره فيمن يختارهم للمدرسة ، وكانت سنة إذ ذاك اثنتى عشرة سنة . ودخل المدرسة ، فلم ترقه ، إذ لم تكن بها عناية بمأكل ولا ملابس : وكانت بها روح عسكرية شديدة : وكاد أن يرجع لولا أن أنعم الله عليه : فنقل إلى مدرسة الهندسة بأبي زعبل سنة ١٢٥٢ هـ / ١٨٣٦ م . يقول :

« وكان أثقل الفنون على وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو ، فكنت أراها كالاطلاس . وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقيت كذلك مدة إلى أن جمع المرحوم إبراهيم بك رأفت متأخرى التلامذة في آخر السنة الثالثة من انتقالنا إلى مدرسة أبي زعبل ، وجعلهم فرقة مستقلة ، فكنت أنا منهم ، بل

آخروهم . وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة . ففى أول درس ألقاه علينا أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة بمعنى واضح وألفاظ وجيزة . . فانفتح من حسن بيانه قُفْلُ قلبي ووعيت ما يقول ، وكانت طريقته هى باب الفتوح على . ولم أقم من أول درس إلا على فائدة : وهكذا جميع دروسه بخلاف غيره من المعلمين . فلم تكن لهم هذه الطريقة : وكان التزامهم لحالة واحدة هو المانع من الفهم ، فختمت عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب وصرت أول فرقى . . وكان رأفت بك يضرب فى المثل ويجعل نجاحى على يديه برهاناً على سوء تعليم المعلمين ، وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة . وفى تلك السنة ، وهى سنة ١٢٥٥هـ قرزوا منا تلامذة المدرسة المهندسيانة ببولاق ، فاختروني فيمن اختاروه ، فأقمت بها خمس سنين ، وأخذت جميع دروسها ، وكنت فيها دائماً أول فرقى .

وفى سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م أرسل بعثت علمى إلى فرنسا ، فكان بين مبعوثيه ، وأقام بها خمس سنوات تعلم فيها الفرنسية وأتقنها كما تعلم الهندسة الحربية والمدنية ، وعاد فى عهد عباس الأول ، وكانت مصر تجتاز دوراً من أدوار محنتها فقد أغلق المدارس ، ونقص ميزانية التعليم إلى خمسة آلاف جنيه فى العام ، والتحق على مبارك بمدرسة فى « طرة » ولم يكن فيها إلا جماعة قليلة متقدمة فى السن . وفى تلك المدة تزوج بكريمة أحد معلميه فى مدرسة أبى زعبل ، ثم حدثته نفسه بزيارة أهله وكانوا قد عادوا إلى « برنال » . يقول واصفاً للمفاجأة والزياره :

« فوجدت أبى قد سافر إلى مصر لزيارتى ، ولم أجد فى المنزل إلا والدى وبعض إخوتى ، وكان دخولهم عليهم ليلاً ، فطرقت الباب : فقيل من أنت ؟ فقلت ابنكم على مبارك . وكانت مدة مفارقتى لأبى أربع عشرة سنة لم ترنى فيها ولا سمعت صوتى ، فقامت مدهوشة إلى ما وراء الباب ، وجعلت تنظر وتحد النظر وكنت ببقايا العسكرية الفرنسية لابساً سيفاً وكسوة تشريف . وكررت السؤال حتى علمت صدق ، ففتحت الباب وعانقتنى ووقعت مغشياً عليها ثم أفاقت ، وجعلت تبكى وتضحك وتزغرد ، وجاء أهل البيت والأقارب والبحيران ،

وامتلاً المنزل ناساً ، وبقينا كذلك إلى الصباح ، والناس بين ذاهب وآيب . ثم رأيت والدتي في حيرة فيما تصنعه لي من الإكرام ، وتريد عمل وليمة وهي فارغة اليد ، ورأيها تبكي ، ففهمت حقيقة الحال ، فناولتها عشرة « بنتو » كانت يجيى ، قفرت وأولت ، وأقمت عندهم يومين ، ثم استأذنتهم ووعدهم بالعود .

وألت بعلى مبارك أيام بؤس ونعيم ، وكان ذلك حال الموظفين المتصلين بالأسرة العلوية ، وخاصة كبارهم ، فيوماً يرضون عنهم ويوماً يغضبون . ولما طول سعيد غضب عليه وألحقه بالفرقة الحربية التي سافرت لتؤازر الدولة العثمانية في حروبها مع الروس . وفي هذه الرحلة تعلم التركية وعاد إلى مصر ، فكان يوظف حيناً ويطرده فيشتغل بالتجارة أو الهندسة الحرة حيناً آخر . وذهب عهد سعيد وجاء عهد إسماعيل فقام فيه بإصلاحات هندسية كثيرة ، وأسند إليه ديوان التعليم ، فنهض به خير نهوض ، وهو أكبر مصلح للتعليم عرفته مصر في القرن الماضي ، ولم يكن فقط بالتعليم العالي ، بل عني به في جميع مراحلها ، يقول :

« وكانت كثرة أشغالي لا تشغلني عن الالتفات إلى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين . فكنت كل يوم أدخل عندهم بكرة وعشيّاً عند غدوى من البيت ورواحي . وأعملت فكري فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية . وكانت المكاتب الأهلية في المدن والأرياف جارية على العادة القديمة ليس فيها إلا تعليم القرآن الشريف ، وأقل من القليل من يتممه منهم ويحيد حفظه ويحجّده ويحسن قراءته مع رداءة الخط في عامة المكاتب المذكورة . فاستحسنست لإجرائها على نسق المدارس المنتظمة ، فحررت لائحة بتنظيمها . ورُتب مفتشون لرعاية العمل بموجبه ، وأنشأت مدارس مركزية في بعض مدن القطر كأسيوط والمنيا وبنى سويف وبها ، وانتخب لكل منها المعلمون والقباط ، وعيّن لها سائر الخدمة . ورتبت بها أدوات التعليم . ورغب الناس في تعليم أولادهم بها وكثرت فيها الأطفال . وأنشأت في القاهرة والإسكندرية بعض مكاتب على هذا الأسلوب مثل مكبتي " القريبية " أحدهما للبنات والآخر للأطفال الذكور ومكاتب الجمالية

مكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفية . . .

وبذلك تحول التعليم في مصر من دوائره الحربية الخاصة التي أرادها محمد على إلى دوائر الثقافة الشعبية . وهي صفحة بيضاء ومأثرة جليلة لعل مبارك ، إذ نقل التعليم قلة واسعة ، ولم يقصره على المذكور كما كان من قبل ، فكان ذلك نواة نهضتنا العلمية . وقد فكر في تعليم اللغة العربية ، وكان تعليمها عقياً على الطريقة الأزهرية ، ولقي هو نفسه في هذه الطريقة غير قليل من العنت ، كما حدثنا آتقاً ، إذ كان يرى النحو كأنه طلاس ، ولم يفتح عليه فيه ، من أجل ذلك كله أنشأ مدرسة « دار العلوم » لتنهض بالدراسة الأدبية واللغوية على نمط جديد . وألحق بالمدراس مطبعة لطبع ما يلزم من الكتب لها ، وأنشأ مجلة سميت « روضة المدارس المصرية » وأقام قاعة للمحاضرات العامة ، وكانت المحاضرات تلي فيها يومياً ما عدا أيام الجمع ، وإليه يرجع فضل إنشاء دار الكتب المصرية فقد جمع الكتب المتفرقة بالمساجد في مكان واحد ، وضم إليها كثيراً من الكتب الأجنبية ، ونظم الاطلاع فيها والاستعارة منها . وبجانب ذلك كان يؤلف ويشجع على التأليف ، للتلاميذ وغير التلاميذ .

والحق أن هذه الترجمة غنية بمعارف كثيرة ، وهي معارف نطّلع من خلالها على وجوه حياتنا التعليمية في القرن الماضي ، فقد تصادف أن كان على مبارك أهم من نهضوا بتلك الحياة حينئذ ، وبجل كل ما صنعه فيها ، بحيث تعد هذه الترجمة وثيقة خطيرة للتعليم في عهد إسماعيل . وكان يتولى أحياناً ديوان الأوقاف أو ديوان الأشغال أو نظارتهما ، فيدخل كثيراً من ضروب الإصلاح . ونراه يعرض للدين التي أثقل بها إسماعيل كاهل مصر كما يعرض لثورة عرابي . وقد عاد إلى الوزارة في عصر الاحتلال ، ولكنه لا يعرض علينا شيئاً من أعماله ، فقد شلّ المحتلون يده ، حتى ليقول : « بها أنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح بقدر الإمكان . . . وأتخذ في تأدية ما فرض على قياماً بحق وطني » .

وإذا كان يؤخذ على هذه السيرة شيء فهو نكوص صاحبها عن الاشتراك في

الثورة العربية ، وهي ثورة وطنية كان من واجبه أن يخوض غمارها ، وليكن ما يكون ، ولكنه كان يؤثر الدعة ، فغادر القاهرة إلى «برنبال» مهتماً بإصلاح أراض له هناك وزراعتها ، ثم عاد فعمل مع المحتلين ، وكان خيراً له أن يعتزل العمل ويظل بعيداً عن السياسة وأوزارها في ذلك الوقت التمس الذي كان يروح فيه الوطن تحت كابوس الاحتلال . وقد توفي سنة ١٨٩٣ م .

ونمضي في القرن العشرين فنجد كثيرين يترجمون لأنفسهم لا في مصر وحدها . بل في بلدان العالم العربي المختلفة ، ومن أشهر من كتبوا حياتهم «محمد كرد علي» أديب سوريا وعالمها الذي توفي منذ سنوات قريبة ، فقد ترجم لنفسه في نهاية الجزء السادس من كتابه «خطط الشام» . ونراه يقول إنه كردي الأصل ، نزع جده من السليمانية إلى دمشق في التجارة . وفيها صادر بعض حكام الترك الظالمين أملاكه ، وعاش مجرداً من ثروته ، يقول :

« وخَلَّفَ والدي يتيماً فقيراً ، فاشتغل لأول أمره في صناعة الخياطة ثم في التجارة ، فأثرى مرات ، وخسر مرات ، وابتاع في آخر أمره مزرعة صغيرة في الغوطة تمزّزتها أنا وإخوتي منذ كنا صغاراً وإلى الآن . ولدت في دمشق وأواخر صفر سنة ١٢٩٣ هـ / ١٨٧٦ م من أم شركسية ، ولما بلغت السادسة في العمر أخذت بتلقي القراءة والكتابة ومبادئ العلوم الإسلامية والحساب والطبيعية في مدرسة كافل سيباي الأميرية ، ونلت شهادتها من الدرجة الأولى . ثم دخلت المكتب الرشدي العسكري فدرست مبادئ التركية ، وكانت دروس الإفرنسية ناقصة ، فأتاني والدي بمعلم إلى الدار أخذت عنه نحو هذه اللغة وصرفها على الأصول مدة ثلاث سنين ، وبرعت بالترجمة من الإفرنسية إلى العربية وبالعكس . ولما أحرزت شهادة المدرسة الرشدية . . عينت مدة ست سنين موظفاً في قلم الأمور الأجنبية ، فأخذت في خلالها أتقن آداب التركية . . وقد اختلفت حولين كاملين إلى المدرسة للعازارين للاضطلاع بآداب اللغة الفرسية . . وقد اقتطعت مع ذلك

جانباً من الوقت لدرس الآداب العربية والعلوم الإسلامية . وتلقيت اللغة الفارسية حتى حلقتها ثم أنسيها .

ويقول إنه كان أكبر من وجهه نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي وإشراب روحه بحبة العرب وآثارهم وإقدامه على النشر والتأليف أستاذه الشيخ طاهر الجزائري ، وقد انبعثت فيه رغبة شديدة إلى مطالعة كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأصول الشعوب ومدنياتهم ، فقرأ كثيراً من كتب الفرنسيين وعكف على قراءة مجلاتهم المختلفة . ولم يلبث أن أصبح صحفياً ، إذ حرر جريدة (الشام) الأسبوعية ثلاث سنين وراسل مجلة المقتطف بمصر ، وأخذ اسمه يلمع ويشتهر . وزار القاهرة سنة ١٩٠١ ودُعي إلى التحرير في مجلة الزائد المصري ، فلبى الدعوة ، واختلف إلى دروس الشيخ محمد عبده ومجالسه . ثم عاد إلى دمشق وكانت عين الحكام الترك عليه ، فكانوا يفتشون داره مراراً . ودعاه ذلك إلى الهجرة ثانية إلى مصر ليصدر فيها مجلته المقتبس واشترك معها في تحرير جريدة الظاهر اليومية وجريدة المؤيد التي كان يحررها الشيخ علي يوسف . وتعرف في أثناء ذلك على كثير من رجالات مصر البارزين . حتى إذا حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ شعر كما شعر غيره من العرب بأن الحكم التركي ستخف وطأة ظلمه ، وأن ساستهم سيعرفون ما للشعوب من حقوق . فرجع إلى دمشق وأصدر جريدة المقتبس يومية سياسية . ويعترف بأنه لم يكن يرى الانفصال عن الدولة العثمانية . إنما كان يريد الإصلاح ما استطاع ، ومع ذلك تولاه حكام الترك بالنقمة والسخط الشديد . فغادر الشام إلى فرنسا ، وتعرف فيها على بعض فلاسفتها وكُتّابها . وكتب في وصف هذه السياحة طائفة من المقالات وجمعها باسم « غرائب الغرب » . ورجع إلى دمشق ، فلقى نفس السخط من حكام الترك ، فهاجر إلى مصر سنة ١٩١٢ ولقى كثيراً من المشقة في طريقه إليها ، وسرعان ما عاد إلى مسقط رأسه . على أنه لم يلبث في السنة التالية أن رحل إلى إيطاليا وفرنسا وأواسط أوروبا باحثاً عن المخطوطات العربية النفيسة في مكاتب الغرب ، وعاد ليجد اضطهاد العثمانيين له

قد تفاقم ، فقد أغلقوا صحيفته « المقتبس » ووضعه تحت رقابة شديدة . ثم عادوا بعد إعلان الحرب الأولى في هذا القرن ، فعفوا عنه ، ودفعوه إلى العمل معهم والدعاية لهم في أثناء الحرب ، فصعد لمشيتهم ، وأعاد صحيفة « المقتبس » وحرر لهم صحيفة أخرى تسمى « الشرق » . وبينما كان في الآستانة أواخر هذه الحرب سقطت دمشق في أيدي الحلفاء ، فعاد إليها وتولى رئاسة ديوان المعارف ، وأنشأ المجمع العلمي العربي الذي لا يزال قائماً إلى اليوم . وعُزل ثم أعاده الاحتلال الفرنسي إلى وظيفته سنة ١٩٢٠ ، وزار أوروبا وطوف في كثير من بلدانها ، ويقف هنا ليرد عن نفسه ما أشيع عنه من مديح الانتداب الفرنسي ، وقد أثر أن يترك الوظيفة ، ويخلص لرئاسة المجمع العلمي العربي وتأسيسه . ولكن لا نصل إلى سنة ١٩٢٨ حتى نراه يتولى وزارة المعارف ويمثل دولته في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في مدينة أكسفورد بإنجلترا ، ويقول إنه أنشأ كلية للآداب وأخرى للإلهيات ، فتحت للجامعة السورية أربع شعب ، هاتان الشعبتان وشعبة للطب وأخرى للحقوق .

ومن طريف ما تتضمنه هذه الترجمة اعتراف صاحبها بمآلاته للحكام من العثمانيين والفرنسيين ، وفي ذلك يقول عن صحيفته :

« كان مذهب المقتبس السياسي معاوناً للحكومة بالمعقول وانتقادها عند الاقتضاء وتحبيذها إذا أتت ما تحبذ عليه . ينزع أبداً إلى إنارة الأفكار وتقوية روح القومية العربية ، وسياسته وطنية ليس فيها شيء من روح الكراهة للأجانب » .

وطبعي أن يقول ذلك وهو قد اشتغل فعلاً في الدعاية للعثمانيين في أثناء الحرب الأولى ، ثم كان ممن آزروا الانتداب الفرنسي في حكم سوريا الشقيقة . على أن هذه صراحة تحمد له ، ومن نمطها يقول :

« خلقت عَصِيَّ المزاج دمويةً ، مغرماً بالموسيقى العربية ، محباً للطرب والأنس والدعاية ، عاشقاً للطبيعة والسياحة . . وقد أولعت بالنجد ، ومن عادتي أن

أقف بمعالجته عند حد لا أتعده إلى هدم أصل من الأصول المقدسة . وأدور من الإصلاح التدريجي العلمي في دائرة لا تتعدى الثروة في الأفكار .

وقد شكّا كثيراً من الصحف التي كانت تتعامل عليه والصحفيين الذين كانوا يثلبونه ، وسمّي أهم مؤلفاته ، وهي : رسائل البلغاء ، وغرائب الغرب .

وغابر الأندلس وحاضرها ، وتاريخ الحضارة : والقديم والحديث : ورواية المجرم البريء ، وقصة الفضيلة والرذيلة . وآخر مؤلفاته : خطط الشام يقول « وهو كتاب في مدينة الشام وتاريخه : صرفت في تأليفه ثلاثين عاماً ، وطالعت لأجله زهاء ألف ومائتي مجلد باللغات الثلاث : العربية والتركية والفرنسية ، وأنفقت في سبيل تأليفه نحو ألف وخمسمائة جنيه . ويدخل في ستة مجلدات » . ويذكر طائفة من كتبه لم تطبع ، ويشير إلى مقالاته الكثيرة في المجلات والصحف وخاصة مجلة المجمع العلمي العربي . وقد توفي سنة ١٩٥٤ م .

٢

طه حسين

في قرية من قرى مغاغة بصعيد مصر ولد هذا الأديب الفذ سنة ١٨٨٩ للميلاد ، وقد بصره في سن مبكرة ولكن القدر وهبه عوضاً عنه ذكاء حاداً وذاكرة قوية . وكان سابع ثلاثة عشر ولداً لموظف صغير بشركة السكر هناك . ولم يكمل يتقدم في صباه حتى أرسله أبوه إلى كتّاب القرية ، فحفظ القرآن الكريم وعمره تسع سنوات ، ثم حفظ بعض المتون واستعد لإكمال دراسته في الأزهر مع أخ له كان قد سبقه إليه . وصحبه معه هذا الأخ وسنه ثلاث عشرة . فالتحق بالأزهر . ولما فتحت الجامعة المصرية الأهلية أبوابها سنة ١٩٠٨ انخرط في سلك طلابها ، واستمع إلى محاضرات المستشرقين بها ، وأخذ في تعلم اللغة الفرنسية واستطاع

فى سنة ١٩١٤ أن يلفت نظر أساتذته فى هذه الجامعة برسالته عن أبى العلاء ، فاجتمع رأيهم على إرساله إلى فرنسا فى بعثة ، فدرس أولاً فى مونبلييه ، ثم أكمل دراسته فى باريس ، وعنى بدراسة تاريخ الإغريق والرومان وآدابهما كما درس الآداب الفرنسية الحديثة . وعاد إلى مصر فعين أستاذاً بجامعة ، ولما تحولت حكومية أصبح أستاذ آداب اللغة العربية بها ، وتقلب فى مناصب مختلفة ، فتارة يكون عميداً للآداب أو مديراً للجامعة الإسكندرية أو مستشاراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم أو وزيراً .

ونراه فى سنة ١٩٢٧ يحاول أن يكتب سيرته ، وقد نشر منها أولاً جزءاً خاصاً بطفولته وصباه . وسماه «الأيام» ، وأتبعه بجزء ثان عن حياته فى القاهرة بالأزهر والجامعة ، وأعطاها نفس العنوان . ونشر ببعض المجلات أخيراً أيامه أو مذكراته عن رحلته إلى فرنسا والمدة التى قضاها فيها ، حتى عاد إلى وطنه .

وهو يصف فى الجزء الأول برقة ودقة حس كيف كان ينمو هذا الطفل الضريع : وكيف أخذ يسيطر تدريجاً على العالم الخارجى من حوله : وكان يشبه فى أول الأمر لغزاً كبيراً أو طلسمًا لا يستطيع فهمه ولا معرفة كُنْهه : يقول فى السطور الأولى من أيامه :

« إذا كان قد بقى له من هذا الوقت " وقت الطفولة " ذكرى واضحة بيّنة لا سبيل إلى الشك فيها : فإنما هى ذكرى هذا السّياج الذى كان يقوم أمامه من القصب " الغاب " والذى لم يكن بينه وبين باب الدار إلا خطوات قصار . وهو يذكر هذا السّياج كأنه رآه أمس . ويذكر أن قصب هذا السّياج كان أطول من قامته ، فكان من العسير عليه أن يتخطاه إلى ما وراءه . ويذكر أن قصب هذا السّياج كان مقرباً كأنما كان متلاصقاً : فلم يكن يستطيع أن ينسلّ فى ثناياه . ويذكر أن قصب هذا السّياج كان يمتد من شماله إلى حيث لا يعلم له نهاية . وكان يمتد عن يمينه إلى آخر الدنيا من هذه الناحية ، وكان

آخر الدنيا من هذه الناحية قريباً . فقد كانت تنسب إلى قناة عرفها حين تقدمت به السن ، وكان لها في حياته أو قل في خياله تأثير عظيم . يذكر هذا كله ، ويذكر أنه كان يحسد الأرانب التي كانت تخرج من الدار كما يخرج منها ، وتتخطى السياج وثباً من فوقه أو انسياً بين قصبه إلى حيث تقترض ما كان وراءه من نبت أخضر . يذكر منه الكرب خاصة . ثم يذكر أنه كان يحب الخروج من الدار إذا غربت الشمس وتعثى الناس . فيعتمد على قصب هذا السياج مفكراً مغرقاً في التفكير ، حتى يردّه إلى ما حوله صوت الشاعر قد جلس على مسافة من شماله ، والتفّ حوله الناس وأخذ ينشد لهم في نغمة عذبة غريبة أخبار أنى زيد وخليفة ودياب ، وهم سكوت إلا حين يستخفهم الطرب . . ثم يذكر أنه كان لا يخرج ليلة إلى موقفه من السياج إلا وفي نفسه حسرة لا ذعة ، لأنه كان بقدر أن سيقتطع عليه اسماعه لنشيد الشاعر حين تدعوه أخته إلى الدخول فيأبى . فتخرج فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليها . فتحمله بين ذراعيها كأنه الثأمة "نبت ضعيف" وتعدو به إلى حيث تنيمه على الأرض وتضع رأسه على فخذ أمه ، ثم تعمد هذه إلى عينيه المظلمتين ، فتفتحهما واحدة بعد الأخرى . وتقطر فيهما سائلاً يؤذيه ولا يجدى عليه خيراً . وهو يألّم ، ولكنه لا يشكو ولا يبكي لأنه كان يكره أن يكون كأخته الصغيرة بكاءً شكاءً . ثم ينقل إلى زاوية في حجرة صغيرة ، فتنيمه أخته على حصير قد بسط عليها لحاف ، وتلبى عليه لحافاً آخر . . ثم يأخذ النوم ، فاحس إلا وقد استيقظ والناس نيام ومن حوله إخوته وأخواته يغطون ، فيسرفون في الغطيط ، فيلقى اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد ، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه ، وكان واثقاً أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف فلا بد أن يعث به عفريت من العفاريات الكثيرة التي كانت تعمر أقطار البيت وتملاً أرجاء وفواحيه .

بهذا الصوت العذب وهذا البوح الصريح عن حياته وكل ما اضطرب فيه من ضيق عيش أو ضيق حِسٍ يكتب طه حسين أيامه ، فيؤثر في نفس قارئه

تأثيراً بعيداً ، ويجذبه جذباً إلى متابعته ومشاركته مشاركة وجدانية ، إذ يأسى لهذا الطفل الضرير وما كان يتقلب فيه من مخاوف وآلام ، جلبهما عليه فقد بصره ، وكانت الدنيا تضيق من حوله ، حتى ليظن أنها تنتهى بقصب السياج الممتد أمام بيته ، وتلك القناة التى لم يكن بينه وبينها إلا خطوات معدودة . وفى النور والظلام ، وفى القصب والقناة أشباح وكائنات غريبة لا تكاد تحصى . ويحدثنا كيف أخذ ينمو وتتسع الدنيا الضيقة القصيرة المحدودة من حوله قليلاً قليلاً . ولا حظ أن أبويه يخون عليه أكثر من إخوته ، فكان يحس من أمه رحمة وراقة ويجد من أبيه ليناً ورفقاً ، وأحس أن أمه تأذن لإخوته فى أشياء تحظرها عليه ، فكان ذلك يؤذيه ، واستحال هذا الإيذاء إلى حزن صامت عميق ، إذ سمع لإخوته يصفون أشياء لا يعرفها ، فعلم أنهم يرون ما لا يرى ، يقول :

« وكان يأكل كما يأكل الناس ، ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب ، ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟ لا شيء ، وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها من الطبق المشترك "بينه وبين أهله" ثم رفعها إلى فمه . فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك ، وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى ، وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته . من ذاك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والإشفاق والحياء لا حد له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية ، ومن ذلك الوقت حرّم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين . »

وعلى هذا النحو يعرض علينا طفولته ملونة بالضرورات والأخطاء الطبيعية لفقد بصره ، وقد أخذته هذه الحادثة بألوان من الشدة فى حياته لا فى طعامه وحده ، بل أيضاً فى لعبه وطوه ، حتى لا يتعرض للضحك أو يثير الإشفاق ، وكان أحب شيء إليه أن يسمع الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه والنساء إلى أمه ، وبذلك تعلم حسن الاستماع ، وكان من أجل ما يسمعه حيثئذ فى مجلس أبيه

قصص الغزوات والفتوح وأخبار عنزة والظاهر بيبرس وأخبار الأنبياء والنساک والصالحين . واسترسل في السماع ، فهو كل لهُو ، فسمع وحفظ الأغاني الشعبية وتعيد النساء ، كما سمع وحفظ الأوراد والأدعية . وفي أثناء ذلك كان يختلف إلى الكتاب لحفظ القرآن ، ويرسم لنا صورة دقيقة عن هذا الكتاب في القرن الماضي و « سيدنا » الذي كان يحفظه والعريف . ولم يقدم له هذا الكتاب كل ما كان يريد من غذاء عقلي ، فتحول إلى قصة الزير سالم وأبي زيد وغيرهما من المسامرات الشعبية ، وأنسى القرآن خلال ذلك وعاد إلى حفظه ، وأخذ يستعد للانتظام في الأزهر ، فحفظ أطرافاً من مجموع المتون والألفية . ونراه يسترسل في الحديث عن شيوخ بلده وما كانوا يعلمون الناس ، كما يسترسل في الحديث عن علم الصوفية وما كانوا يذيعونه من آراء ، ويذكر أنه أكبَّ على كتب السحر والتصوف والقصص الشعبية المختلفة ، ويعرض كثيراً من المعتقدات الخرافية التي كانت تنتشر في العامة والتي كان لها تأثير عميق في نفسه ، ويصف وصفاً مؤثراً وفاة أخت له ، وأخٍ نزعته الكوليرا في سنة ١٩٠٢ وطبع الحادئان حياة الأسرة بطابع حزن لم يفارقها ، فأصبحت في حِداد متصل ولم يتبع بعضه بعضاً . ويرحل عقب ذلك مع أخيه إلى الأزهر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ويأخذ في الدراسة به إلى جانب أحد أعمدته . ونراه يلتفت في نهاية هذا الجزء إلى ابنته ، وكانت في التاسعة من عمرها ، وكان أستاذاً بالجامعة ، فيحدثها عن نفسه حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم في الأزهر قائلا :

« إن كان في ذلك الوقت لصبيٌ جيدٌ وعمل ، كان نحيفاً شاحب اللون مهملَ الزيِّ أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، تفتححه العين اقتحاماً في عباءته القدرة وطاقيته التي استحال بياضها إلى سواد قاتم ، وفي هذا القميص الذي يبين من تحت عباءته ، وقد اتخذ ألواناً مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفي نعليه الباليين المرقعتين . تفتححه العين في هذا كله ، ولكنها تبسم له حين تراه على ما هو عليه من حال رثة وبصر مكفوف واضح الجبين مبتسم الغفر

مسرعاً مع قائده إلى الأزهر ، لا تختلف خطاه ولا يتردد في مشيته ، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التي تغشى عادة وجوه المكفوفين . تتحمله العين ولكنها تبتسم له وتلاحظه في شيء من الرفق ، حين تراه في حلقة الدرس مصغياً كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاماً ، مبتسماً مع ذلك لا متألماً ولا متبرماً ولا مظهرأ ميلاً إلى لهو ، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشربون إلى اللهو . عرفته يا ابنتي في هذا الطور ، وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته ، إذن تقدرين ما بينك وبينه من فرق ، ولكن أنى لك هذا وأنت في التاسعة من عمرك . ترين الحياة كلها نعيماً وصفوا . عرفته يتفق الأيام والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لوناً واحداً ، يأخذ منه حظه في الصباح ، ويأخذ منه حظه في المساء ، لا شاكياً ولا متبرماً ولا متجلداً ، ولا مفكراً في أن حاله خليقة بالشكوى . ولو أخذت يا ابنتي من هذا اللون حظاً قليلاً في يوم واحد لأشفقت أملك ولقدمت إليك قدحاً من الماء المعدني ولا تنتظرت أن تدعو الطبيب . لقد كان أبوك يتفق الأسبوع والشهر لا يعيش إلا على خُبْزِ الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر ، إن كانوا ليجدون فيه ضرراً من القش وألواناً من الحصى وفنوناً من الحشرات . وكان يتفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا في العسل الأسود ، وأنت لا تعرفين العسل الأسود ، وخير لك أن لا تعرفيه « ويقرن هذه الحياة البائسة إلى حياته الناعمة التي انتهى إليها ، ويرد ذلك إلى زوجته الفرنسية التي بدلتها من البؤس نعيماً ، ومن اليأس أملاً ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفوا .

وننتقل معه إلى الجزء الثاني من الأيام ليحدثنا عن سكناه في أحد الأزقة بجوار الأزهر وما كان يلقي في مسكنه ومطعمه من ضروب العنت والمشقة ، ويطيل الحديث عن الأزهر وصحنه ودروسه ، وينقل إلينا نقلاً دقيقاً صورة الحياة العلمية فيه حينئذ وما كان فيها من صلاح وفساد ، ويشيد بالشيخ محمد عبده ومحاضراته ، ويكثر من ملاحظاته على رفاقه والشيوخ من حوله والصناع والباعة وغير الصناع والباعة من هذا اللقيف الذي كان يؤلف بيئته التي عاش فيها لأول عهده

بالقاهرة . ويغرق في دروس الأزهر . ويعود إلى البلدة بآراء جديدة في الدين ، وينكر الناس منه ذلك . ثم يرد إلى الأزهر فيمعن في الفقه والنحو والمنطق ، ويأخذ في جدال الشيوخ ويتعمق في الاعتراضات والأجوبة على طريقة القوم ، ويقف على حياتهم ، وينقد بعضهم نقداً مرّاً ، ولا يلبث أن يتجه إلى الأدب ودروس الشيخ سيد المرصفي خاصة . فقد وجد فيها ما يسد حاجته ورغبته ، فأثرها على غيرها من الدروس . وأخذ في نقد الشيوخ وأفكارهم نقداً حرّاً ناثراً ، ورعى بالكفر والإلحاد فلم يهن . ولم يضعف ، بل أقبل على قراءة كتب قاسم أمين وغيره من المجددين ، كما أقبل على الجريدة التي كان يصدرها لطفي السيد حيثئذ ويذيع فيها آراءه الحرة . وأنشئت الجامعة القديمة . وإذا هو يختلف مع قائده إلى دروس الأزهر مصباحاً وإلى دروس الجامعة ممسياً . ويتسع أفقه عن طريق ما سمعه في الجامعة من المستشرقين وغيرهم : بل تفتح له آفاق جديدة ، فقد اتصل ببيئة مغايرة لبيئته القديمة ، واستمع إلى أساتذة لا سبيل إلى الموازنة بينهم — كما يقول — وبين أساتذته في الأزهر . وعكف على هؤلاء الأساتذة ومحاضراتهم ، وكادت تنقطع الصلة بينه وبين حياته القديمة « إلا أنه ربما ألم بالأزهر مرة في الأسبوع أو الأسبوعين ، وإلا أنه ربما لقي أصدقاءه من الأزهريين حين كانوا يسعون إلى الجامعة بين حين وحين . وإلا أنه كان يزور الشيخ المرصفي من وقت إلى وقت » . وعول على قطع كل صلة بينه وبين الأزهر لولا أنه وجد عند أبيه رغبة في أن يتم دروسه به ، فاضطر إلى أن يحيا حياة مشتركة يتجاذبه فيها قديم الأزهر وجديد الجامعة . وإذا كان قد أنهى الجزء الأول من أيامه بتوجيه الحديث إلى ابنته فإنه أنهى هذا الجزء بتوجيه الحديث إلى ابنه : وكان قد أتم دراسته في جامعة القاهرة وانتوى أن يعبر البحر إلى باريس ليطلب فيها العلم كما طلبه أبوه فيها من قبل . وما من شك في أن هذه السيرة الدقيقة تعد فريدة في العربية فإن كاتبها عرس فيها نفسه وبيئته المصرية من جميع أطرافها في القرية وفي المدينة وفي الكُتّاب والأزهر والجامعة لا يترك شيئاً هنا وهناك دون أن يحصيه ويرسمه رسماً بارعاً .

أحمد أمين

وأهم ترجمة ذاتية كتبت بعد الأيام هي «حياتي» ، لأحمد أمين الذي اشتهر بكتاباته في الحياة العقلية العربية . ولد سنة ١٨٨٦ للميلاد ، وكان أبوه مدرساً في الأزهر وفي مسجد الإمام الشافعي كما كان إمام مسجد ، وعمل حيناً مصححاً في المطبعة الأميرية ببولاق . فهو لم يولد في الريف أو في الصعيد مثل علي مبارك أو طه حسين ، وإنما ولد في القاهرة بحى الخليفة . وألحقه أبوه بالكُتّاب ، ثم بمدروسة أم عباس ، وعاد فأدخله في الأزهر ، وتركه إلى مدروسة القضاء الشرعى فتخرج فيها ، واشتغل مدرساً بها ، ثم قاضياً شرعياً ، وفي أثناء ذلك أخذ في تعلم اللغة الإنجليزية . ولما أصبحت الجامعة المصرية حكومية انتقل إليها مدرساً للغة العربية ، وظل في كلية الآداب ، حتى أصبح عميداً لها ، ثم اختير مديراً للثقافة بوزارة التربية والتعليم ، فنهض بها ، وأسس الجامعة الشعبية . وسافر إلى أوروبا في بعض المؤتمرات . وكانت حياته العلمية خصبة فترك مؤلفات كثيرة . واشترك في ترجمة غير كتاب ، وترجم أحياناً منفرداً . وما زال يواصل جهاده في التأليف ، حتى توفى سنة ١٩٥٤ .

وترجمته «حياتي» كتبها في أواخر أيامه ، فهي تصف حياته من أولها إلى نهايتها تقريباً ، غير أنها لا تعنى بهذه الحياة بمقدار ما تعنى بالأحداث الهامة التي ارتبطت بها ، فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء مثل طه حسين ، وربما دفعه إلى ذلك دراساته السابقة في العرب وتاريخهم وحياتهم الفكرية ، فانهلر في أغلب ما كتب من تاريخ نفسه إلى تاريخ عصره ، ولم

يعن بأحداثه بل تحول مؤرخاً يسجل . وهو فى هذا التسجيل قلما انفعلى بما يرى ويشاهد على عكس طه حسين فى أيامه التى تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أى حجاب أو أى موارد . وقد يرجع ذلك إلى حياء شديد فى أحمد أمين . جعله يخفى كثيراً من جوانب حياته أو قل من جوانب نفسه ، ولعل من الطريف أنه اعترف بذلك فى مقدمته ، فقال إنه لم يذكر كل الحق لأن منه ما يردل قوله وتنبو الأذن عن سماعه ، وكان ينبغى أن يذكر الحق كله ، حتى يكون الكتاب اعترافات كاملة وترجمة شخصية تامة .

ومع ذلك فالكتاب فيه غير قليل من الاعترافات ، وهو يسوق ذلك فى بساطة . تشوق القارئ إلى متابعته . ونراه يستهله بأن الإنسان نتيجة حتمية لكل ما مر عليه وعلى آباءه من أحداث ، وكأنه يؤمن بعامل الوراثة والبيئة فى تكوين الشخص . ولكنه لم يحدثنا طويلا عن أثر الوراثة فيه ، فقد عنى بالبيئة أكثر مما عنى بالوراثة . ويقول إنه مصرى صميم نزحت أسرته من قرية من قرى مديرية البحيرة فى الدلتا إلى القاهرة فراراً من ظلم الحكام للفلاحين فى تحصيل الضرائب وتسخيرهم كالعبيد . وعاشت الأسرة فى حى الخليفة . والتحق أبوه بالأزهر وتخرج فيه ، وأصهر إلى أسرة من العطارين هاجرت من مديرية المنوفية إلى القاهرة . وكان رابع ولد أنجبه أبوه . ويصف لنا مسكنه البسيط وحارته ، ويطلق فى وصف سكان الحارة . وكأنه يريد أن يطلعنا على الحياة فى أحياء القاهرة أواخر القرن الماضى ، ولم تكن المدنية قد تغلغت فيها ولا أثرت فى سكانها . فالحياة فى البيت وخارجه قديمة . تغمرها العواطف الدينية . ويحدثنا أنه كان ضعيف البصر ، قليل النظر ، ورث ذلك عن أمه كما ورث عن أبيه الإفراط فى الجلد وتحمل المشقات والاستجابة لعوامل الحزن والإيمان بالله إيماناً لا تزلزله الفلسفة ولا تشكك فيه مطالعاته فى كتب الملحددين . وكانت معيشته فى بيته أثناء نشأته بسيطة : فشب وشاخ لا يحفل بمأكلى ولا مشرب ولا ملابس . بل يحب البساطة فى كل شيء

حتى في الحديث والإلقاء والكتابة . ويدخل الكتّاب ليحفظ القرآن، ومن أجل ما في هذه الترجمة وصفه لذلك الكتاب وطريقة التعليم فيه، يقول :

« هو حجرة متصلة بمسجد ويجانبها دورة مياه . وأثاث هذه الحجرة حصير كبير بال . قد انسلت منه بعض عيدانه : وزير فيه ماء يكاد يسود من الوسخ ، عليه غطاء من خشب . قد ثبت في الغطاء حبل طويل ربط فيه كوز ليستقى منه الشارب . ويتناول الكوز ليشرب منه النظيف والقدر والمريض والصحيح ، وصندوق صغير من صناديق الجاز وضعت فيه ألواح . بعضها صفيح قد صدئ ، وبعضها خشب قد زال طلاؤه ، كُتِب عليها بعض آيات القرآن بالحبر الأسود لا تكاد ترى . وشيخ قد لبس عمامة وقباء من غير جبة وبيده عصاً طويلة . يسار كبير في الحائط علقت فيه "الفلة" وهي عصاً غليظة تزيد قليلا على المتر ، ثقب فيها ثقبان ثبت فيهما حبل . فإذا أراد سيدنا ضرب ولد أدخلت رجلاه في هذا الحبل ولويت عليهما الخشبة . فلا تستطيع القدمان حركة ، ونزل عليهما سيدنا بالعصا . ثم عود من الجريد طويل يستطيع سيدنا أن يضرب به أقصى ولد في الحجرة . وهذا كل أثاث الكتاب . نذهب إليه صباحاً ، ونجلس على هذا الحصير مترعين متلاصقين . ويأخذ كل منا لوحه من الصندوق ، وكان لوحى جديداً ، إذ كنت مبتدئاً . وكان لسيدنا عريف يساعده في كتابة الألواح للأطفال ويقوم مقامه إذا غاب . كما يساعده في مدّ رجل الطفل في الفلة عند الحاجة . ويقرأ كل تلميذ في لوحه حسب تعلمه ، هذا يقرأ ألف باء وهذا سورة الفاتحة . وهذا سورة تبارك وهكذا . فإذا فرغنا من قراءة الدرس الجديد استمع لنا الماضي . وهو ما حفظناه من القرآن في الدروس الماضية ، فإذا جاء وقت الغداء أخذ سيدنا من كل ولد قرشاً أو نصف قرش أو ملياً حسب مقدّره ، وبعث سيدنا العريف : فأحضر له ماجورين أخضرين : في أحدهما فول نابت ومرة ، وفي الآخر مخلل ومرة : والتف التلاميذ حوله بعد أن أحضروا خبزهم الذي جاءوا به من بيوتهم . وأخذت أيديهم تغوص باللحمة في

مرقة القول أحياناً وفي مرقة المخلل أحياناً : ولا بأس أن يكون في الأولاد مريض وصحيح وقدر ونظيف وملوث وغير ملوث . فعلى الله الاتكال . والبركة تمنع من العدوى . وإذا قرأنا وجب أن نهتز ووجب أن نصيح ، فن لم يهتز أو لم يصح لم يشعر إلا والعصا تنزل عليه فيصرخ ويصيح بالقراءة والبكاء معاً ، ونبقى على هذه الحال إلى قرب العصر : فنخرج إلى بيوتنا . ومن حين لآخر يمر أبو الطفل على سيدنا ، فيسأله عن ابنه ويطلب منه أن ينفذ له القروة . وهذا اصطلاح بين الآباء وفقهاء الكتّاب أن يشتدوا على الطفل ويضربوه ، فلا تعجب بعد ذلك إذا وجدت أرواحاً ميتة ونفوساً كسيرة . ومن أجل هذا كان أكره شيء علينا الكتّاب واسم الكتاب وسيدنا » .

ومكث في الكتّاب خمس سنوات حفظ فيها القرآن وتعلم القراءة والكتابة ، وكان أبوه يرعاه أثناء ذلك في البيت . فيتلو أمامه ما حفظه ويسمعه . ويلحقه بمدرسة أم عباس ثم يخرج منه في الرابعة عشرة من عمره ويلحقه بالأزهر . فيلبس العمة والمركوب ويدخل في الجبة والقفطان . ويقيده هذا الملبس ، فلا يجري كما يجري الأطفال ولا يمرح كما يمرح الثفتيان ، وبذلك شاخ قبل الألوان . ويصبح من طلبة الأزهر يختلف للحلقات ودروسه ، ويصف لنا كيف ضاق بطريقة التعليم فيه كما ضاق بها من قبل طه حسين ، وتعلن الجمعية الخيرية الإسلامية عن حاجتها إلى مدرسين لتعليم اللغة العربية ، فيترك الأزهر ويصبح من مدرسي هذه الجمعية ، ثم يتركها إلى وزارة التربية والتعليم . ويعطينا صورة واضحة عن التعليم في المدارس حينئذ . وتفتح مدرسة القضاء الشرعي أبوابها في سنة ١٩٠٧ فينتظم فيها . ويستمع إلى من يحاضرون بها ، وكانوا من خيرة الأساتذة . وكان ناظرها عاطف بركات من خيرة النظار . تخرج في مدرسة دار العلوم وتعلم في أوروبا وعرف نظم الجامعات بها . فلما وُكلت إليه هذه المدرسة حولها جامعة صغيرة يدرّب فيها الطلاب على حرية الرأي يأخذهم بأسباب البحث ، وقد أعجب بالطالب أحمد أمين . فعينه عقب تخرجه معيداً

له في دروس الأخلاق ، ثم عيّن قاضياً شرعياً في الواحات الخارجة ، ولم يلبث أن عاد إلى مدرسة القضاء الشرعي ، وأحس حاجته إلى تعلم الإنجليزية ، فأخذ في تعلمها ووفق إلى سيدة إنجليزية كان لها أثر كبير في عقله ونفسه ، وفي هذه الأثناء ألف مع جماعة من خريجي مدرسة المعلمين « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ولها فضل عظيم في حياتنا الأدبية والعلمية بما ألف أعضاؤها وترجموا ونشروا من كتب مختلفة . وأخذ يتصل بالأندية الأدبية ويجريديتي المؤيد والنفور وغيرهما من جرائد وصحف مما كان له أثره في تنمية نزعة الكتابة والمحاضرة عنده . ونراه يعرض علينا زواجه وجانباً من حياته المنزلية في سلوكه مع زوجته وتربية أولاده . وتنشأ الحركة الوطنية ، ويسهم فيها ولكن بقدر ، وينقل من المدرسة إلى القضاء الشرعي ، فيظل فيه أربع سنوات ، يدعو في نهايتها ضديقه طه حسين لأن يكون مدرساً بكلية الآداب ، فيلبي دعوته ويصبح بين مدرسي هذه الكلية ، وكانوا خطيباً من المصريين والأجانب ، ويخلع زيه القديم ، ويلبس الزي الأوربي الحديث ، ويندمج في الحياة العلمية الجامعية ويأخذ في تأليف كتبه القيمة . ويسافر إلى الآستانة للبحث عن بعض المخطوطات ، ويصف لنا تركيا في عهد مصلحها العظيم كمال أتاتورك كما يصف مكتباتها الغنية بالكتب العربية . وتتاح له فرصة زيارة الشام والعراق في رحلات الطلاب ، ويصف لنا مشاهداته هنا وهناك . وفي سنة ١٩٣٢ يحضر مؤتمر المستشرقين الذي انعقد بليدن في هولاندة ، فطوف في بلدان أوربا ورأى المدنية الغربية تحت عينيه لأول مرة ، وأكمل استفادته من هذه الرحلة برحلة أخرى سنة ١٩٣٨ إذ اختير عضواً في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في بروكسل .

ويخرج من حديثه عن رحلاته إلى وصف حياته في الجامعة وكيف تطورت حتى عين عميداً لها ويحدثنا عن كثير من مواقفه الحازمة في عمادته وبمجلس الجامعة . ثم يترك العمادة ويخلص للأستاذية والتأليف والنشر . ثم يتدب مديراً للثقافة ، ويمثل مصر في مؤتمر فلسطين الذي انعقد بلندن سنة ١٩٤٦ . ويحال

أخيراً إلى المعاش ويضطر إلى عملية في شبكية عينه، ويصف وصفاً مؤثراً مشاعره حين دخل المستشفى لإجراء هذه العملية . وينال تقدير الدولة فيمنح درجة الدكتوراه الفخرية من الجامعة وجائزة الدولة الأدبية . هذه هي سيرته ، وهي تطوى في تضاعيفها سيرة ستين عاماً من حياتنا بما فيها من أحداث ورجال وتطور في شئوننا الاجتماعية والعلمية .

فهرس الموضوعات

الصفحة	
٥	مقدمة
١١ - ٧	تمهيد
٣٦ - ١٢	الفصل الأول : تراجم فلسفية
١٢	١ - المتفلسفة يترجمون لأنفسهم
١٧	٢ - ابن الهيثم
٢٣	٣ - ابن سينا
٣٠	٤ - متفلسفة مختلفون
٥٨ - ٣٧	الفصل الثاني : تراجم علمية وأدبية
٣٧	١ - علماء وأدباء يتحدثون عن أنفسهم
٤٥	٢ - ابن الجوزى
٤٩	٣ - أبو شامة المقدسى
٥٢	٤ - كثرة التراجم العلمية والأدبية
٨٤ - ٥٩	الفصل الثالث : تراجم صوفية
٥٩	١ - المتصوفة يصفون سلوكهم وتجاربهم
٦٧	٢ - الغزالي
٧٧	٣ - بعد الغزالي
١٠٤ - ٨٥	الفصل الرابع : تراجم سياسية
٨٥	١ - رجال السياسة يكتبون مذكراتهم
٩٣	٢ - أسامة بن منقذ
١٠٠	٣ - ابن خلدون
١٢٥ - ١٠٥	الفصل الخامس : تراجم حديثة
١٠٥	١ - تراجم مختلفة
١١٣	٢ - طه حسين
١٢٠	٣ - أحمد أمين

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- * الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثامنة ٢٠٨ صفحات
- * البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٢٢ صفحة
- * الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر
بني أمية
- * الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- * البحث الأدبي : طبيعته - ومناهجه -
أصوله - مصادره
- * الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- * الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية

- * في النقد الأدبي
- * الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
- * فصول في الشعر ونقده
- * الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

- * البلاغة : تطور وتاريخ
- * الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
- * المدارس النحوية
- * الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
- * تجديد النحو
- * الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- * تيسير النحو والتعليم قديماً وحديثاً مع نهج تجديد
- * الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

في مجموعة نوايغ الفكر العربي

- * ابن زيدون
- * الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في الدراسات القرآنية

- * سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
- * الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

- * العصر الجاهلي
- * الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
- * العصر الإسلامي
- * الطبعة العاشرة ٤٦٦ صفحة
- * العصر العباسي الأول
- * الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- * العصر العباسي الثاني
- * الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
- * الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
- * الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

- * الفن ومذاهبه في الشعر العربي
- * الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
- * الفن ومذاهبه في النثر العربي
- * الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- * التطور والتجديد في الشعر الأموي
- * الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
- * دراسات في الشعر العربي المعاصر
- * الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
- * شوقي شاعر العصر الحديث
- * الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد
الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

* الدرر في اختصار المغازي والسير
لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

* العقاد

الطبعة الرابعة

* البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

* معى

الطبعة الثانية

* الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

في مجموعة فنون الأدب العربي
* الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

* المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

١٩٨٧ / ٢٤١٦	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٨٤-٣	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٢٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. ٢٠٠٠ ع. ١٠)

هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره . فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول واقر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل .

وفضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السنين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

35

ض

٣٠/١٩٥٩

٣٠٠